الحزن الوسيم

تحسين گرمياني

الحزن الوسيم

رواية

2020

الطبعة الثانية

عنوان الكتاب: الحزن الوسيم

نوع الكتاب: رواية

اسم المؤلف: تحسين گرمياني

تصميم وطباعة: رؤى للطباعة والنشر/العراق

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة

لرؤى للطباعة والنشر

ISBN:978-9922-9238-5-7

الطبعة الثانية: رؤى للطباعة والنشر- العراق - 2020

الطبعة الأولى ـ دار الينابيع ـ دمشق ـ2010

رؤى للطباعة والنشر-العراق

E:alnator2000@yahoo.com

Mob:07725197116

السعر: 5000 دينار

﴿ بقيادة الحزن الوسيم

بقيادة الحزن الأطول قامة من أعاصير الجبال

والأوسع عيناً من الجحيم

والأثقب نظراً من الوحدة

بلغت أوج هذا الزمن.. ﴾

غريد الجبل..

الشاعر: شيركو بي كه س.

الهجوم

في فجرٍ حليبي بارد، هبطت خمس مروحيات عسكرية حول قمّة الجبل، ترجل مئة جندي مغاوير بشكل مباغت، ما أن أطلق الضابط البدين، صرخته عبر مكبر الصوت:

ـ أريدهم أحياء!

بدت القمة شاهقة متناعسه، في فجرٍ إكتنتفه رياح جليدية قارسة، تعثراً كان الجنود يتقدمون، تندفع من أفواههم أبخرة كأنها كور دخانية متناثرة، سرعان ما تستحيل إلى ندف ثلجية تتساقط كالقطن المندوف، كانوا يتقدمون خطوة، يتوقفون برهة، يبصقون كرات حليبية تتراكم داخل أفواههم الفاغرة، ظلّ الضابط يراقب، بالكاد، جنده عبر ناظور عسكري من داخل مروحية سادسة ظلّت تحوم في فضاء مغتصب من قبل جيش ضباب ظلّ يتجحفل مع الوقت، رآهم عبر عدسة الناظور، نقاط أو أشباح ثلجية تلهث، تتساقط وتنهض ما بين خطوة وأخرى، قذف بصاقه باتجاههم، قاذفاً سبابه وشتائمه السوقية:

ـ أولاد الخراء، سأحلق رؤوسكم وأدخلكم معسكر ضبط لشهر كامل!

صاروا، بعد خمس وعشرين دقيقة قرب القمّة النهائية، طلّ عليهم شاب في عمر ليس من العسر تخمينه، تشير قسمات وجهه على أنه فوق العشرين ودون الخامسة والعشرين، كان يتكور داخل معطف فرو، راعه

ما رأى، صاحت الجموع المتعثرة فيه، وهي تسحب أقسام بنادقها، طالقين صرخات بدت مرتبكة، دلّت على علامات الخوف أكثر مما دلّت على وقع المفاجأة، مرتبكاً تلقى الشاب من خلفه ضربة صاعقة على أم رأسه، سقط وانهالت عليه الأيدي، شدّوا وثاقه وجرجروه إلى حيث مروحية الضابط البدين، جاثية كبعير متعب، وجد الموقف لا يستحق التأهب للفرار، لحت المروحيات كعاهرات انتهين من أشواط جماع متعبة، رفعوا الولد المصدوم وألقوه داخل مروحية الضابط، هدرت المحركات دفعة واحدة وانطلقوا به.

في تلك اللحظة، طلّت رؤوس قطيع من الماعز، جأرت بشكل جماعي منتظم، وكلب بدأ يعوي كذئب متشوق لذئبة، لاحت الرؤوس تلمع من على القمّة الشاهقة، رددت الجبال والوديان صدى موسيقى الحنين لتلك المخلوقات المستفهمة لمسافات قصية، مستغربة تغرز عيونها في هياكل كائنات حديدية، جثمت وأخذت راعيها، قبل أن تحلق في الفضاء الأبيض كأنها شياطين!

هبطت المروحيّات الست، نزل الضابط البدين وترجل الجند وراءه، أنزلوا الفتى، كان مصفر الوجه، فاقداً جميع حواسه، تندفع من منخريه خيوط دماء متجلدة، مهترئ السروال، سحله الضابط كمن يسحل خروف منحور قبل أن يلقيه أمام كوكبة ضبّاط كانوا متهيئين لمعركة طويلة، تقدم كبيرهم، تبرج من على كتفيه صفّي نجيمات ذهبية ونسرين وخطّين أحمرين، دفع الولد بمقدمة حذاء قدمه، لم يتمالك الفتى نفسه، سقط على ظهره، صاح بصوت خشن:

ـ أنت جاسوس أيها الكردي!

ليس بوسعه التفوه بكلام، فمه ممتلئ بالدم، أسنانه فقدت رفيقين متقابلين، كل شيء في عينيه ضباب وغبار وغيوم سود، صاح الضابط البدين الذي كان يقود طاقم الهجوم:

ـ سيدي بيشمركه خطير، كل صباح يطل علينا من هناك، حيث القمّة الشاهقة يترصدنا، قبل أن يخبر جماعته ليقطعوا طريق جنودنا، ويصطادونهم واحداً واحدا.

هز الضابط الكبير رأسه..صاح:

ـ أين هو سلاحه؟

صمت الضابط قائد العملية الإنزالية، اقشعرت أبدان الجنود المائة الصامتين، قبل أن يتلعثم عريف جنوبي السحنة:

ـ سيدي" وجدنا هذه معه!

طفرت عينا الضابط الكبير واحمرّتا وجنتاه، عاط:

ـ ماااااا..هذاااااا ياااااا كلب؟

كاد العريف أن يهوي، وكاد أن يشخ على نفسه، عاط الضابط الكبير مرة أخرى:

ـ كلب، قشمر، ماااااا..هذاااا؟

تعلثم العريف:

ـ سسيدي..يسـ..يسـ..يسمونه..ششمشمشال!

ـ شمشمشمشاااااااال؟

تقدم قائد الحملة العسكرية المباغتة خطوات نحو الضابط الكبير، قدّم يسراه ودق يمناه بقوة مؤدياً تحيته المنضبطة..تمتم:

ـ سيدي" ألم أقل لك أنه بيشمركة خطير متنكر بهيئة راعي.

ضرب الضابط الكبير رأس الولد المغمى عليه بمقدمة حذائه، هز رأسه ونحت عينيه في عيني ضابط صغير جديد الشارب، كان يقف على مسافة فاصلة وراءه..قال له:

ـ ملازم حردان" شوف شغلك ويّاه!

قرع حردان الأرض ببسطاله. صاح:

ـ أمرك سيدي الآمر!

استدار إلى الوراء وأشار لخمسة جنود كانوا واقفين كتماثيل حجرية وراءه، خمسة جنود بأشمال زيتونية وبيريات حمر، لم يشاركوا في وليمة الصباح الباكر، تقدموا معاً، أدّوا تحيّة منسجمة، قبل أن يتقدموا من الجسد المتهالك، سحبوه إلى عمود الإعدام، ربطوه وتراجعوا عشر خطوات في انتظار الأمر، تقدم الملازم حردان من الضابط الكبير، وقف أمامه بخشوع ومهابة، أدّى التحية، قبل أن يقرأ:

ـ بناء على أوامركم العسكرية سيدي الآمر، سيتم إعدام هذا البيشمركة، مجهول الاسم والعنوان، في الساعة الثامنة والنصف من صبيحة يوم الاثنين الموافق، الرابع عشر من الشهر آذار لعام ١٩٨٨. بعدما ضبط متلبساً بالتلصص على معسكر جناروك كجاسوس، جرّاء فعلته التجسسيّة، أنزل

خسائر جسيمة في جندنا لدى فترات إجازاتهم الدورية، الفصيل جاهز للتنفيذ أمرك سيدي.

هزّ الضابط الكبير رأسه، أشار بيديه بدء عملية التنفيذ، استدار الملازم حردان، خطا بضع خطوات قبل أن يستدير إلى الوراء بحركة عسكرية، سحب شهيقاً عميقاً، صوّب نظره إلى الخمسة المتأهبين.. صاح:

ـ فصيييييل..أرمِ!

لحظة انهال مطر الرصاص على جسد الفتى، كانت رؤوس الماعز تعزف جئير التحدي بوجه العالم، بحثاً عن راعيها، لاح الكلب يعتلي قمة صخرة، يعوي بشكلٍ مريب، ناشداً كلاب العالم لنجدته، تقدم الضابط الصغير، وضع الشمشال في طيّات معطف المعدوم، أمر جنده بنقله إلى مروحية ظلّت متأهبة، قامت من مجثمها وحلّقت عالياً لتلقي بالجثة على القمة الشاهقة، لحظة ارتطمت بالأرض اندفع القطيع إليه، سوروه بمناحة كونية ظلّت تتناسل وتقلق المعسكر ليل نهار، قبل أن يأمر الضابط الكبير بقصف وحشي للقمّة، لإسكات الضجيج الملحمي المتواصل، هطلت القذائف حارقة القمة، من يومها سكت القطيع عن النواح، لكن صوت ساحر، صوت شمشال يبدأ العزف مع الغسق ليملأ الليل بموسيقى محيرة، يتحول الليل إلى أوركسترا جبلية خانقة، أقضت مضجع الضابط الكبير، حين علم بما فعله الضابط الصغير حردان، بعد لحظة الإعدام، رفع تقريراً إلى الجهات العليا، جاءت الموافقة على طلبه، تم في فجرٍ ثقيل، بعد مرور شهرين على حالة إعدام الولد الراعي، شدّوا وثاق الضابط الصغير حردان

إلى ذات عمود الإعدام، أطلق الضابط الكبير بنفسه الرصاصة الأولى من مسدسه على رأسه، جرّاء الخيانة العظمى، بسبب دس الشمشال مصدر الحب والحياة والسعادة لقاطني الجبال الشاهقة، تحت معطف المعدوم، وعدم تسليمه كممتلكات تسلّم إلى دائرة الاستخبارات العسكرية العامة.

تم نقل جثة الضابط حردان عبر مروحية وإلقائها على القمة الشاهقة أيضاً.

الكاميرا لم تكن هناك

من كان مدعواً، من مر من هناك مارقاً بمركبته، ذاهباً إلى، أو آيباً من مدينة السليمانية، سيظل يحكي ما رأى، تحديداً أولئك الذين أغراهم المشهد ودغدغهم الفضول لبيان ما يجري في مكان قفر، يجترح خاصرة جبل شاهق، يليه سلسلة لا تنتهي من جبال تمتد وتمتد إلى ما لا نهاية، يحده سيف مقوّس لشارع رئيس، يفصله عن نهرٍ ملتوٍ، ينحدر من أعالي الشمال، ليس من المستبعد أن من وقف شاهداً أصابته الدهشة، وقف ليستمتع أو ليستطلع هذه الجموع البشرية الهائجة، جموع بأسمال ملونة، من بعد جلوس وفرح، قامت مرتبكة واندفعت تركض وتصرخ وراء فتاة رفضت أن تستجيب لنداءاتهم، رجال ونساء وأطفال يهرولون باتجاه القمّة الشاهقة، خلف فتاة تلبس ثوب عرسها، كل شيء ممكن ومحتمل، طالما الكاميرا الخفيّة صارت موضة العصر، هاجساً يسكن رأس كل إنسان يتجول في الأسواق، سيظن البعض أن ما حدث ربما شيء محبوك ومتعمد كجزء من متطلبات فيلم سينمائي أو مسلسل تلفازي، بعدما صارت الفضائيات تبحث عن ويلات الزمن الراحل، من حقهم أن يجولوا بعيونهم بحثاً عن الكاميرات المنصوبة أو المخرج والمصوّر وكادر التصوير، بعدما تخلّصت الجبال من العسكر، وعادت القرى التي أُنفلت من جديد تنتشر هنا

وهناك، من جديد بدأت تزهو القمم بسقسقات القبج، ما أن رحل الجند فارين أمام زحف الجيوش المتحالفة لانتزاع العرين المغتصب من قبل شيطان الدنيا، ولّوا فارين تاركين كل شيء، أسلحتهم وكرامتهم، وثكناتهم التي صارت أمكنة مؤهلة لإقامة الأعراس الكونية لجيل التحرير.

حفلة الزفاف

كان الأصيل يفرش ألقه، بعدما أستكمل زينته، متهيئاً من بعد يومٍ قاسٍ لليلة موحشة، أثنين حزيراني، أثنين الفرح ولقاء العرسان، كراسي مرصوصة بتناسق، مكبران للصوت عن اليمين والشمال يتقابلان، في مساحة أرض مربعة، أرض تبدو كملعب لكرة القدم، لولا آثار ومخلفات تقر إنها كانت طلول لمعسكر مهجور، أو مدحور، جموع بشرية تنهمك برقص تراثي تحت هيمنة أغانٍ حديثة، تقدمت أم العريس وسحبت العريسين إلى وسط حلقة الراقصين، بدت العروس خجولة، ليس لديها جرأة أن تتحرك وتتقافز مثل الفتيات المنهمكات برقص ماجن، ببنطلوناتهن الضيقة، وخط البطن الطالع بألق وأغراء، فجأة توقفت دلسوز، شيء ما جمّد أوصالها، أطرقت برأسها، أرادت أن تتماسك كي تتيقن مما رأت، شعر نوزاد بحال عروسه، وجد قدراته نائمة، ظلّ ناحتاً عينيه في الوجه البريء، عادت دلسوز ونحتت عينيها في عينيه، قرأت أسئلة خجولة، أسئلة لم تكن من قبل تحمل كل هذا السحر، وكل هذا الغموض، فتى حمل الحزن الجميل والأصيل في ربوع قلبه، حزن غير مصطنع، شفيف متألق، يبث علاماته التنديدية بروية وينثره على أديم الوجه المستدير بتناسق غير مألوف، صامتاً غير مبالياً بالصخب الضارب أطنابه، ولا بالعيون المرحة الغيورة من حولهما.. همس في أذنها:

ـ لستِ على ما يرام!

ـ أشعر بعدم راحة!

ـ هو خوف الليلة الأولى!

نحتت عينيها في الأرض، لمحت رصاصات بنادق صدئة، شيء ما وخزها في القلب، لم تسمع ما قاله عريسها، كانت منشغلة بشيء تمقته، شيء باغتها في يوم فرحها، شعرت بكف يده اليمنى يلامس خدها، انتبهت ناقلة عينيها ثانية إليه:

ـ أنت خائفة يا دلسوز!

ـ لا أعرف!

ـ هل تشعرين بالندم؟

استعادت كامل وعيها، وجدته يتوسل بعينيه، يحاول أن يتدارك نفسه، أسعفته على عجل، وضعت يديها في يديه، سحبته إلى منتصف الحلقة، بدء طائراً من الفرح يراقصها.. قالت:

ـ لا تقل هذا الكلام ثانية.

أراد أن يبكي، أراد أن يستجمع كلاماً كثيراً ويقذفها دفعة واحدة، أراد أن يقول أنا أحبك يا دلسوز، أنا أعتذر أنا..أأنا!!! أحبك، كانت تقرأ الخجل المهيمن والندم المتفاعل في عينيه، براءة ناطقة في قسماته، سحر شمالي يترجل بتؤدة من عينيه، كل شيء فيه عاقل ومهذب، رغم عصف الحزن الساكن في أعماقه، توقفت وأجبرته على التوقف، سحبته إلى كرسييهما، كانت أم نوزاد تطلق زغاريدها الرعدية، صديقه الأثير شيرزاد،

شاهراً مسدسه يرقص ويلهب الفضاء بسيل متواصل من الرصاص، استعاد نوزاد شيئاً من توازنه، وجد بضع كلمات بدأت تصالح لسانه..همس:

ـ دلسوز!

ـ عيون دلسوز!

ـ أعدك أن أفكر قبل أن أقول شيئاً!

ـ لا تفكر بالموضوع، دعنا نشعر الناس بأننا فرحين وسطهم!

صمت وجيز لفهما، كانت العيون تراقب الفرح، نساء لا يكلن وفتيات يطلقن رغباتهن عسى أن يقتنصن طرائد ذكورية واقفة تطلق سهام غرائز إليهن، توقف المغني ودعا الحضور إلى الموائد لقطع كيكة الزفاف، لحظة همّت دلسوز أن تقوم سقطت نظراتها ثانية على الأرض، ثمة شيء في المكان، تتنبأ به، وجدت رصاصات أخرى، رصاصات صدئة، تنمل بدأ يباغت جسدها، وجدها نوزاد واقفة لا تتحرك، مد كفه اليمين وتناول كفها اليسار، وجدها تنحت عينيها في الأرض، رفع كفه اليسار ولامس حنكها، رفعه إليه، كانت دامعة العينين، مسح دموعها، قادها إلى الموائد، ظلّ العريس يصارع محنة فاجأته في لحظة فرحه، لم تحتمل العروس نفسها، وجدت شيئاً يلح، شيء غير عادي، نهضت ووقفت حائرة، قام العريس ووقف أمامها، فجأة استدارت دلسوز واندفعت تركض، وجد نوزاد نفسه يندفع وراءها، أرباك حصل في الحشد المحتفل، لم يحتملوا المشهد، وجدوا أنفسهم يركضون من غير سبب وراءهما باتجاه قمّة الجبل.

العريس نوزاد

ما زال يدين بالكثير لرفيق عمره شيرزاد آكري، أنقذه ذات أصيل فوق قمّة أزمر، كان يشعر بإحباط تام وعدم قرار، سواد متكاثف وغبار متلاحق يستعمران روحه، كان فتى يأساً، لم يكن كسولا، شعلة نار كان، مثابراً، عيون زملاؤه تنغرز فيه ملؤها غيرة واندهاش، لعبت الصدفة دوراً في قولبة حلمه، جاء ترتيبه الثاني في ختام مرحلة دراسية مرهقة، ذلك ما كان يؤلمه، كافح مذ دخل الحرم الجامعي أن يكن فارس مرحلته، طالما كان يتربع رف الشطّار أثناء مراحله الدراسية السابقة، ذهب الترتيب الأوّل لـه وليز، كافح من أجلها أكثر مما كافح من أجل النتيجة النهائية لترتيبه النهائي، سهر الليالي كي يمتلك قلبها، كانت فتاة تمتلك من الدلال ما فاق إمكانياته، ابنة ميسور الحال، لا تأتي مشياً أو تنزل من حافلات نقل الطلاّب، ولا عبر التاكسيات الخصوصية، كما كان يفعل هو، راجلاً يأتي أكثر أيامه حفاظاً على ما في جيبه من نقود، تقنيناً وربما ضغطاً للنفقات المتفاقمة، خلال سنواته الأربع، كان يجاورها جلوساً، التقت عيناهما، انفرجتا ثغراهما عن بسمات طموحة، ظلّ هاجس صداقتها أملاً وحلماً، خانته الجرأة في مناسبات عديدة، وقف معها وتحادثا عن هموم الدراسة والسياسة، عن عسر الأسئلة وركاكة الدرجات، عن أمنيات تسبح في

متاهات الخيال، عن كل شيء تحاورا وتأهب أن لا يخالفها رأياً، احتاط أن لا تبدر منه ما يجرح مشاعرها، وجدها رقيقة لا تحتمل الأشياء الغليظة، أو هو لا يريد أن يعكر مزاج فتاة خلقت للراحة والسرور الدائمين، تحادثا عن كل شيء، عن الموضات المستوردة، عن الماكياجات الحديثة، كل ما يخطر في البال، إلاّ عن شيء مهم ودافع رئيسي للحياة، شيء تنطقه العيون وتصرّح به القلوب عبر انتفاضات فاضحة، شيء مهدت الظروف أرضيته وفرشت له مساحات نادرة من التسامح، لكن رياح الطموح كانت دائماً تجيء معاكسة.

في ذلك اليوم، كان عائداً من حفلة التخرج كلّه قلق، شعر بضيق في صدره، لم تعد عيناه تريان بوضوح، لا شيء يستولي على فكره سوى هه ولير، ستذهب بعيداً، بعيداً هو أيضاً سيذهب، هو الآخر لا يعرف إلى أين ستمضي به كوابيس الحياة القادمة، هكذا هي كينونة الحياة، ألعابها غير سارة عند شباب لم ينالوا فرص تربية ممتازة جراء فقدان الآباء، كلٌ في طريقه، كلٌ سيمضي ناسياً صديقته.. صديقتها.. صديقها.. صديقه. مضت ذات الرداء البنفسجي، أم العيون الهادئة، صاحبة الثغر المبتسم على طول المدى، هه ولير أمنية سيظل ماثلاً في حضرتها، سيحتفظ بشكلها، لا يريد أن يغمض عينيه كي يحافظ على ملامحها، سيذهب إلى أعظم فنّان حتى لو تطلب الأمر السفر راجلاً إلى خارج كردستان، سيذهب إلى هندستان أو أميركا الجنوبية، سيذهب إلى مشاغل أوربا إلى مجاهل أفريقيا، إلى الاسكيمو إن تطلب الأمر، سيبحث عن فنّان لا يخطأ، فنان يقرأ أفكار العاشق من غير

اللجوء إلى القواميس، فنّان يحفر ما يريده هو على لوحة صامدة بوجه تقلبات المناخ، كل ما يسكنه من تقاسيم متناغمة لوجه صبوح، سيشرح له ملامح هه وليز، سيقول له:

ـ شعرها من الشمس، لا.. لا.. ليس كل شمس طبعاً، أيها الفنان المبجّل، سيصرخ بوجهه، يا من توفر للعشاق مهدئات وفرص أخرى لإطالة الحياة، الشمس في بلادي أحلى وأنقى، شمسنا تشرق بلا غبار، صافية كالماء الزلال، شعرها خصلة مسروقة من شمس كوردستان، عيناها.. آآآه.. أرجوك لا تجرح فؤادي، لا تطلب مزيداً من الشروحات، مزيداً من العذاب، عيناها، واسعتان، حريصتان، رقيقتان، بلوريتان، لا تعرفان الكذب، لم تتذوقا الحزن والبكاء، عينان ناطقتان، لكنهما تجهلان الحب، عينان قمران في سماء جميلة، لا.. لا.. ليس كأقماركم أيها الراسم لي ملامح هه وليري، القمر في كوردستان آيات للعشّاق، أقمارنا لا تعرف البكاء، أقمارنا تنثر الذهب الخالص من الشوائب والترسبات الجوية في الليالي، لا.. لا.. القمر في كوردستان، يرفض أن يُخسف، دائماً ينير دروبنا نحو الحرية، آه.. أنت تطلب طولها، يا طولها.. يا طولها.. أيها الفنّان ارحمني، أنا كائن متعب، قلبي يضرب بعنف، ضرباته لا تشبه ضربات قلوبكم، قلوبنا عنيدة، ألا تسمع هذا العصف المزلزل في، جبت العالم بحثاً عنك، عبرت الجبال والوديان سيراً، خضت متاهات البحار والمحيطات عوماً، خرقت مجاهيل الغابات بلا دليل، إلاّ دليل الحب، حب هه وليز أرجوك.. لا تحمّلني أوزاراً أخرى، أنا عاشق مرهق، أتعبه هوى فتاة من

مدينته، فتاة كلها وداعة وجمال، طولها يا سيدي، مثل غصن البان، مثل أغصان المشمش في أوج شبوبه، لا.. لا.. ليس كل مشمش طبعاً، حسناً عملت معروفا لي بسؤالك، المشمش في كردستان مذاقه رحمة، شكله راحة بال، مشمشنا مزجج، يعكس ملامح العابرين من تحته، ماذا تريد بعد، لك أن تتخيل ما أريد، هه ولير حين تمشي، تحت قدميها الأرض تنادي: هبط ملاك اليوم علي!. كلامها همس، عطرها منعش مسكر، حين تغادر يستحيل النهار إلى ظلام خانق، أرجوك يا فنّان دعني أستريح أنا متعب، عبرت العالم من غير جواز سفر، أنا كردي لو ألقي القبض علي، سينشغل العالم بي، لا أريد الفضائيات أن تسلط أضواءها وتتهمني بالجنون، ستقول في زمن التناحرات والاقتتال الأخوي، في زمن الفوضى والتهجير القسري، في زمن التكفير العلني، في زمن التمزق البشري، في زمن النفاق السياسي، في زمن المراهنات بالشرف والغيرة، في زمن موت البراءة والفطرة، عاشق من كردستان يصرعه بعد فتاة، أرجوك أكمل لوحتي لأعود إلى بلادي، هناك سأموت وأدفن اللوحة معي، كفاني حياة، كفاني فقر، كفاني عشق، كفاني عذاب، تكفيني سنوات أربع، هي كل ما عشت، وداعاً.. وداااااعاً...

كان يمشي محاوراً نفسه، لسانه أسير ظنون وهواجس، قلبه يدفع بالونات الوسوسات، تتصارعه رغبة أن يشغل العالم بأسره، أن يفعل الأعاجيب كي ينتقم من كوابيسه الأزلية، فتى خجول، محروم، معدم، ابن كادح ساقته مركبة عسكرية ذات حملة حربية، أخذوه ولم يعد، ظلّ ينتظر،

كبر ولم يعد، واعدوه أن يجدوا أسمه بين قوائم المؤنفلين، واعدوه أن يأتوه برفاته من بين مئات القبور السياسية كي يكون مثل الآخرين يمتلك أباً وله قبر يزوره كلّما يرغب.

كان في حجر أمه في مكان بعيد، تحديداً في مدينة جلبلاء يوم زحفت أرتال النظام الراحل، زمر الظلام، ساقت من ساقت إلى غياهب السجون، كبر وناضل أن يكون مهذباً شاطراً، خلوقاً، كبر ودخل الكلية، كما كانت ترغب أمه، مهندساً يبني الحياة بعد خرابها:

ـ سيفرح أبوك في منفاه ـ كانت تقول له أمه ـ سيراك من الفضاء وأنت تعيد ما خرّبه الأشرار في ربوع الشمال!

كان يندفع، من صف لصف، سنة بعد أخرى، صار في كلية الهندسة كما رغبت أمه، هناك وجد الجمال الكردي ساحراً، وجد هه وليز سليماني ملاك بهيئة بشر، مذ رآها صارت نبضات قلبه تختلف عن نبضات الآخرين، قلب يعصف، أحياناً يشعر أنّه يتكلم، صارت تلك الزميلة حلمه النهائي، انقضت السنوات كما تنقضي الأحلام الجميلة، ها.. هي أمنيته تمضي، مثل بقعة سراب، في وضح النهار، وهو يمضي لا يعرف إلى أين، يمشي فاقداً رشده، يريد أن يصرخ ويملئ العالم صراخاً، يرغب أن يطلب العون، كلٌ يمضي في سبيله لا يبالي به أحد ،لا يسمع نبض فؤاده أحد، الناس تذهب إلى مساكنها، الناس تمضي إلى أعمالها، وحده لا يعرف أين يمضي، تجاهل دعوات زملاؤه ومناداتهم له، كانوا فرحين بنتائجهم، كانوا يهرولون إلى منازلهم، ذهبوا ليحتفلوا، وحده غير قانع بنتيجته، لا تهمه

الآن النتيجة، كان منشغلاً بـ هه وليز، كـان الأوّل علـى زملائـه عـبر كـل مراحل دراسته، آه.. لو لم تكن هه وليز الأولى، هكـذا دار بخلـده، لانتحـر وتخلّص من حياته التالية.

ظلّ يمشي يائساً كمجذوب ظلّ دربه، عاد عبر الطـرق الـتي طالـت عليه، يريد أن يخمد هذا الدرداب العاصف ببدنه، يريد أن يرى الأشياء من حوله بوضوح، أين سينتهي؟ تذكر قمّة أزمر، مـن هنـاك سيـصرخ وداعـاً للعالم، من هناك سـينادي هـه ولـير.. هـه و.. لـ.. يـ.. يـ.. يـ.. ـر) ،سيقذف نفسه، سيطير كثيراً قبل أن يسقط، سيـسكب أحزانـه علـى كـل شبر أرض من المدينة، ربما يـتمكن أن ينقـل جـسده لمـسافة كافيـة، مـسافة ليست كبيرة طبعاً، فهو يريد أن يقطع علاقته بالدنيا من غـير تـأخير، يريـد أن يطير مسافة كافية كي يسقط على سطح منزل هـه ولـير، ستـسمع هـي صوت ارتطام، هي الآن تحتفل، أهلها فرحون من حولها، زميلاتها فرحـات، ربما هي ترقص على أنغام أغنية، لا.. لا.. ربما بيدها كوب عصير، سيـسقط كوب العصير من بين يديها، ستصغي لصوت الارتطام، أهلها فرحـون مـن حولها، صديقاتها، وحدي بلا أهل، حزين في دنيا لا ترحم أصـحاب الحـزن العالي، أخذوا أبي لا أعرف إلى أين، آه.. لو أعرف مكان دفنـه، سـأذهب إليه حتى لو كان في صحاري الجنوب القاتلة، وحدي أمشي، لا أحـد يريـد أن يفرح بي، يتيم لا يليق به الفرح، لا أحد يريد يتيماً، مهما كانت درجـة أخلاقه ووسامته ودرجة منفعته أيضاً، الغني مرغـوب حتـى لـو كـان خبيثـاً شريراً، المال صـار كـل شـيء في يومنـا هـذا، مـا قيمـة الـشهادة في بـلاد

يرعاها.....، حتى الأوائل ليس بوسعهم التعين، وحدهم الأغنياء ينالون كل شيء، التعينات والمناصب، آه.. ستصعد هه ولير إلى سطح المنزل، ربما هي لا تصعد، حلمي الأخير أن تصعد هي، أنا أريدها أن تصعد، أريدها أن تراني، ستندهش، ستقول لم فعلت هذا، آه.. ربما من أجلي، يا لغبائي، لا.. لا.. لا أريد أن تتهم نفسها بالغباء، هي ذكية ونالت الترتيب الأوّل، حتماً ستتذكر جولييت التي كانت تتشبه بها، كانت تحكي دائماً قصتها لزميلاتها، تشبهها في كل شيء، خفّتها، مرحها، رقّتها، تسريحتها، شيء واحد يفصلها عن جوليت محبوبة روميو، هه ولير لم تعرف الحب، جوليت كانت تستحق أن تكون آلهة الحب والجمال في العصور الحديثة، ضحت وناضلت من أجل روميو، ربما هه ولير ستندهش وتفكر بي، ربما ستعرف أن نظراتي الخجولة عبر أربع سنوات لها كانت ذات مغزى، ستقول، كان يحبني، كان يريدني، يا ترى ماذا تعمل؟ هل تنتحر كما انتحرت جوليت؟ يا له من مشهد حداثي، ستتفاخر الأمّة الكردية بـ نوزاد وهه ولير، كما تتفاخر الأمّة الإنكليزية بـ روميو وجوليت، آه.. سنحمل معاً، سندفن معاً، يتيم وميسورة، في مقبرة ستغدو محطة لراحة الناس وسعادتهم، ستقول الناس، عاشق مغمور من مدينتنا شدّ جناحين من ريش الطيور وطار كالنسور من أجل فتاة تدعى هه ولير بنت رجل ميسور، ليس كما فعل بن فرناس من أجل حريته وحرية أبنه، عاشق قذف بنفسه من قمّة أزمر، طار كثيراً قبل أن تذوّب الشمس جناحيه فوق منطقة ظلّ يحوم فوقها، من أجل فتاة لم تعرف أن زميلها كان متيماً بهواها، لا.. لا.. لا أريد أن تموت هه

ولير، وحدي الفائض عن الدنيا، دعها تعيش، أنا.. أنا.. أنـا.. يـا عـالم مـن يريد أن يموت، وحدي من يستحق الموت، الفقراء يجب أن يغـادروا الحيـاة كي تهدأ أرواح الأغنياء، الفقراء أرض الله ليست واسعة من أجلـهم، مـن أين يأتوا بالمال كي يسافروا، لا بلد يريد فقيراً، يـستقطبون أصـحاب المـال الكثير والشهادات الراقية، ماذا يعملون بأناس بطونهم لا تشبع، صـخبهم مضجر، رائحتهم درنة، لا.. لا.. لا فقير في عالم الحداثة والتقنيات.

ظلّ يمشي يائساً والأصيل يدنو، نسى أنه جائع، نسى أنـه عطـشان، نسى أنه يلهث، نسى أنه ظلّ دربه، نسى العـالم، نـسى نفـسه، ظـلّ يمـشي ويمشي، قبل أن تمسكه يدان وتسحبانه بحركة مباغتة، كـان يهـوي في تلـك اللحظة من القمّة الشاهقة.

العروس دلسوز

ما من امرأة رأتها حتى وضعتها نصب عينيها، كل من تملك أبناً حان وقت سحب مهرة لتسهر على راحته، رغبة كل أم كردية عبر العصور والأزمنة، مهما كانت هناك انتهاكات، تبقى رغبة ضخ الحياة بالمواليد الجدد أهم ما في البال، دلسوز فتاة ذات جمال وهدوء طباع، سليمة من غير عاهات، نظيفة لا غبار كلام يحوم حولها، عاشت من غير أب، صغيرة، ناعمة، ليست خجولة، تلك الصفة التي ميزتها عن بنات منطقتها، ما ذاقت طعم الحب، الحب الأبوي، الحب الأخوي، حب الأولاد أصحاب الجرأة، حب واحد ترعرع فيها، حب الجمال والحياة والسعادة، حب النظر إلى الألوان والحركات، عاشت مع أمها، مثل كثير من الأمهات، أمهات كردستان، المفجوعات برحيل، ليس في أوانه، لرجالهن، ظلّت أمها تراقب وتنتظر، ألقت كل أوراق تقاويم الأمل، صار الزوج في ماضٍ لن يعود، كانت دلسوز مع أمها تواصل رحلة شاقة في متاهات حياة لا ترحم، مثل كل الفتيات شبّت عن الطوق وصارت هدفاً مغرياً لكل صيّاد أو صيّادة يريد أو تريد قنيصة حسب المزاج لفلذة الكبد، ولعها بالدراسة جعلها خارج طموح النساء، محبوبة عند معلماتها، تحب العمل المدرسي، تثابر، لا تعرف لم كل هذا الركض من أجل المدرسة، وجدت نفسها تحب الرسم، معلّمة الرسم جلبت لها علب ألوان زيتية، وكراريس رسم حين رأت موهبتها غير

طبيعية، اندفعت ترسم، تحت ضوء متراقص للفانوس طيلة الليالي الشتائية، تضع بصماتها البريئة على أوراق لا تنتهي، كل ما يجول في خيالها يتحول إلى تشكيلات تشع ببصمات موهبة قادمة، تهرع في اليوم اللاحق إلى معلمتها، تستقبلها بترحاب وبشاشة، تتناول لوحاتها، تضخ تعازيم تشجيعية في ربوع طفولتها، ترسم لها دروب الإبداع والمستقبل الحافل بالنور، تعود الطفلة مندفعة، كأنها تحمل شهادة حياة، من جديد تمرر ريشة خيالها على مساحات واسعة من بياض مستقبلها، لم تبال بكلام نسوة كنّ يمقتن ذلك، نسوة كن يهمسن في أذن أمّها:

ـ لا تدعيها تمارس أعمال الرجال، ستغدو كسولة وتتعب زوجها!

لا ترغب أمّها جرح مشاعرها، كانت تردهن:

ـ جرحتني الحياة في وقت باكر، لا.. لا.. لن أجرح قلب دلسوز، اتركوها تلهو كما ترغب، هي كل ما تبقى لي في هذه الدنيا الغريبة!

لم تبال بما يجري من حولها، لا تعير أذناً صاغية للهمسات والغمزات، كانت تلعب على الورق، رافضة اللعب في الحارة، فوق الورق كانت ترى أشياء حلوّة تتشكل، تناديها، تلهث وراءها، كبرت البنت وصارت الكلمات تتبدل، كل واحدة تسحب الأم وتصدع رأسها بالعسل الحياتي، بأشياء أصبحت خارج الذاكرة، خارج القلب، زادت الطلبات وظلّت الأم تستقبل الطعم من غير رد أو إعطاء مهل ووعود، كانت تقول:

ـ سأتركها تواصل دراستها، هي ستختار حياتها.

صارت دلسوز بنت تملئ العيون مرحاً، شعرها سارح، عيناها واسعتان، فيهما كلام كثير مؤجل، " يا ترى من هو صاحب الحظ السعيد ليغرد فوق هذا الجسد الغريد؟". كلام يردده الشباب والرجال كلّما تمر من أمامهم، تمشي، يخرج النمل معافى غير غاضباَ أو رافعاً شكوى إلى الخالق ضد صاحبة الأقدام التي داستها، تمشي والعيون تبكي فرحاً أو كمداً، كثيرون قالوا:

ـ نقبل بتطليق زوجاتنا من أجلها!

سمعت كلامهم، ظلّت تنحت ذاكرتها في فارس سيأتي مع شروق الشمس، أو قبل مغيبها، فارس سيختاره الزمن والقسمة اللعينة، لم تعرف لم هي بلا أب، مرة واحدة سألت أمها، بكت أمّها كثيراً، من يومها قررت أن لا تهيّج كوامنها، قررت أن تحافظ على الحزن الوسيم كما يقول شاعر الأمّة الكردية شيركو بي كه س في تقاسيم وجه أمّها، لكن الأسرار في زماننا مباحة ووسيلة للّعب بمشاعر الناس، مضى زمن الألسنة الحديدية، هذا زمن ليس بوسع الإنسان الحفاظ على أصغريه لسانه وقلبه، عرفت أن أباها ذهب ولم يعد، لا أحد يعرف عن القضية أكثر من ذلك، خرج ذات صباح أو بالأحرى ذات فجر وغابت أخباره، كل شيء بات معتاداً في بلاد الكرد، من يخرج، من يأخذوه من منامه، كل امرئ هدف متوقع لزمر عسكرية تأتي كل لحظة وتأخذ من غير سؤال أو سابق تلميح، الصغير والكبير، كل بشري يمشي على أرض كردستان نبات غير حسن يجب

قلعه، هكذا تقول ألسنة العسكر، ليس بوسع أحد أن يسأل، عرفت من عجوز أن أباها أخذته الحكومة:

ـ كان يرعى أغنامه فوق الجبل، كنّا نسمع صوت الشمشال وهو يوزع اللحن الجميل إلى الجبال، كنّ فتيات المنطقة يصغين للصوت وهو يرفعهن إلى سماوات السعادة، حتى غدون كسولات، يتركن أعمالهن ويجلسن ليشملهن أبوك بصوت شمشاله، فجأة سكت الشمشال، راحت العيون تخترق الضباب الكثيف وقيامة الأصوات التي تعالت، من بعيد لمحنا ومضات سود تخترق الفضاء، عرفنا أنها طائرات الحكومة جاءت تحوم في المكان الذي كان أبوك يوزع فيه فرحه الدائم إلينا، ومن لحظتها لم يعد، وكل غائب يا دلسوز في كردستان وراء غيّابه جناب الحكومة!

ذلك كل ما عرفته وأبقت أسئلتها دائمة التحفز لكل خبر يزيد من لهفتها لأبيها، كانت تقرأ أشياء كثيرة في عيني أم قررت أن لا تتزوج، أن تستنزف حياتها الباقية من أجل ثمرة بعلها، كبرت البنت وصارت فنّانة، لا تعرف لم اختارت الجمال والحياة والبهجة والمرح وكل إشكاليات المتع منهجاً في خيالها، رغم تواجد الحزن الوسيم والدمع المترقرق والعذاب الواضح، في عيني أمها، رغم الأمل البارق في عيون النساء، رغم الخوف المترعرع على مساحات الخدود، رغم الكآبة الضاربة أغصان النباتات والأشجار، رغم بؤس الأطفال، رغم الذعر المتضاعف في عيون الطيور، كانت تبحر عكس الواقع، تقود مركبة نفسها باتجاه قوس قزح يرتسم في أفق خيالها، نبذت العنف واللون الأحمر، رفضت أن تلوّث ريشتها بالوسائل

الحربيّة كما كانت تبرزها الكثير من اللوحات التعبوية في معارض فنّاني المرحلة البائسة، ردّت في لقاء صحفي عابر:

ـ لا أريد أن أكرّس الحزن منهجاً، وداعاً للحزن، علينا أن ننير حياتنا القادمة بكل ما هو مضيء، نحن أمّة لا تموت رغم قوّة وتعدد أعدائنا، سيضربوننا بالمدافع والصواريخ والطائرات، سيرشونا بالمبيدات اللا إنسانية، لكننا سنرشقهم بالنور والحب والابتسامات حتى يفيقوا من غيّهم!

لم تحتمل الصحافية القادمة من فرنسا كلامها، عانقتها باكية، قالت بلغتها التي ترجمها شاب لبناني مرافق:

ـ قسماً بالمسيح الذي صلب من أجل سلام البشرية، سأمشي في شوارع باريس وأصرخ من أجلكم، أنكم أعظم شعوب الأرض صبراً وتسامحاً، أنّكم أمّة كاملة مكمّلة ولكن بلا هويّة، أمّة سلام، أمّة لا تنتقم من معذبيها!

صارت البنت مطمح كل شاب رآها، ظلّت هي تواصل من أجل أمّتها بث سلام خيالها عبر المعارض الفنيّة، كل مساء تأخذ أمها إلى ربوع الجبال، هناك في القمم الشاهقة، يحلو الجلوس، يحلو الكلام، يحلو الرسم. ذات يوم قالت أمها:

ـ ها.. دلّة كما كانت تدللها، إلى أين تأخذينني اليوم، بي ضيق كبير، أريد أن أشم هواء الحرية، أريد أن أطرد هواء الزمن الفاسد من قلبي، العالم كلّه خرج ليفرح، خرج ليرقص، هذا هو اليوم الذي طال شوقنا إليه!

أطرقت البنت رأسها، كانت الأم تبكي، تستحضر يوماً لا ينسى، يوماً كان حلم الزوج الذي غاب ذات فجر بارد، شيء ومض في خيال دلسوز، شيء مثل البرق فرض نفسه، حقاً هذا يوم الفرح، يوم زوال الغبار والظلام من على رقعة الأرض المباركة، أرض كردستان الحبيبة، رفعت رأسها، كانت دامعة العينين أيضاً، قالت هامسة، قالت بصوت مذبوح:

ـ بي رغبة أن اصطحبك إلى هناك ـ أشارت بإصبعها نحو قمّة شاحبة بالكاد تبرز ملامحها ـ إلى هناك يزحف شعبنا، كي يبرقوا مراسيل البهجة وأناشيد النصر الذي طال عليهم، إلى هناك حيث بدأت نيران الفرح تعلو، من على قمّة أزمر!

ملامح لا تنسى

ـ لا أعرف أ أشكرك أم ألعنك يا صديقي!

ـ قل ما شئت، كلّي آذان صاغية!

ـ آه.. حقاً اليأس لا يليق بهذا الشعب!

ـ كدت تهلك!

ـ من بعثك لي!

ـ ربما هي هه وليرتك يا صاح!

وقف نوزاد، وقف صاحبه، تنفس بعمق وزفر، رفع كفه اليمين وأشار، نقل صاحبه نظره، رأى نقاط سوداء، رأى غبار أو ضباب، شيء بين هذا وذاك:

ـ كان من الممكن أن أسقط هناك في تلك النقطة الوامضة!

ـ هي كلّها نقاط وامضة بدأت تضج في عيني!

بدأ السير وبدأ صاحبه يتبعه، كان الشارع مثل أفعى يطوي الجبال، كانت المركبات تمرق باحتراس، صاعدة ونازلة، رجال ونساء وأطفال يلهثون، وصلوا مكاناً فسيحاً، يطل على مساحة أوسع، تقدم نوزاد من الحافة، جلس وأشار لصاحبه أن يجلس. قال:

ـ كيف تراني، هل بوسعي أن أصبر على ذلك!

ـ لقد صبرنا على الظلم نصف قرن، أرى أنك ستنساها!

ـ هي هه ولير.. هه وليييييير!

ـ كل فتيات السليمانية يا صاحبي هه وليرااااااااااااااات!

ـ لكنها الملكة، ليس في السليمانية سواها، البقية كلهن وصيفات!

ـ أنك ترهقني!

ـ وأنك تريدني أن أغدو إنساناً بلا رغبة، بلا حلم، بلا ذوق!

ـ تلك هي سفينة الأمنيات، لا تجري برياح الرغبة، أنها سفينة تمشي على هواها!

ـ ولكن..!. قاطعه شيرزاد.

ـ بلا.. ولكن، عليك أن تنقاد للزمن، أن تكون حكيماً في سيرك، أن تترك قلبك لواحدة لابد وأن ستأتي وتغيّر كل ما فيك، لحظتها، أنا واثق أنك ستلعن ماضيك، أو تضحك عليه قليلاً وعلى نفسك طويلاً!

ـ آه.. ذلك صعب يا أخي، قلبي لم يألف غير ومضاتها، عيني ما رأت غير هه ولير!

ـ قم يا صاحبي! لنترك الهذر ونستمتع بهذا الفرح، ربما ستجد علاجاً لعلتك!

ـ لو كنت مكاني لما قلت هذا الكلام، لقضيت لياليك سهراً واحتراقاً حتى ترمد!

قام صاحبه وسحبه، مشيا باتجاه قمة أزمر، بدأ نوزاد ينحني ليلتقط حصا ويقذفها، كان صاحبه ينظر إليه هازاً رأسه، وصلا منبسط أرضي

آخر، وقف نوزاد، وقف صاحبه، كانت هناك فتاة ببنطلون، تضع على رأسها قبعة، تقف أمام لوحة خشبية، وكانت هناك امرأة تجلس على بساط، وقفا معاً، كانت الفتاة ترسم. قال صاحبه:

ـ يا لها من فنانة!

ظل نوزاد صامتاً، مأخوذاً، مد صاحبه كفه اليسار ووضعه على كتفه اليمين، أفاق نوزاد من غيبوبة عميقة. أردف صاحبه:

ـ ما الذي سلبك وعيك!

همس:

ـ تشبهها! أنها تشبه هه وليرا!

ـ أكانت رسّامة؟

ـ كلا.. كانت تحب المعارض الفنية، كانت تقتني اللوحات الثمينة!

ـ ربما هي! لم لا نذهب إليها، قل لي أكانت تضع قبّعة على رأسها!

ـ قبّعات! كانت تستبدلها كل يوم!

ـ قد تكون هي! لنقترب منها!

ـ لا.. لا.. لا أعتقد أن تكون هي!

ـ لم تخاف! ربما هي!

ـ لا.. لا.. لا أريد أن أقترب أكثر، دعني أنظر إليها من هنا!

سحبه صاحبه واقتربا إلى مسافة لا تتجاوز المائة متر، توقفا، قال نوزاد:

ـ يكاد قلبي أن ينخلع، لو كانت هي لسقطت من فرط الهلع!

ـ ألم تقل أنها شبيهتها!

ـ لها نفس الشعر ونفس الطول، وربما نفس الرغبات والحركات!

ـ ألم أقل لك أن كل فتياتنا هه وليرات!

ـ ولكن..! قاطعه.

ـ عدنا لـ اللكن، قد تجدها دواء لعلتك!

ـ هيهات.. هيهات!

ـ لم هيهات؟

ـ من ترضى بفقير!

ـ أنت مهندس يا أخي!

ـ مهندس من غير وظيفة!

ـ كل شيء سيهون طالما تخلصنا من سياسة الظلم، وتحررت أمّتنا من نير العبودية!

ـ هذا هو الدافع الوحيد الذي دعاني أن أروض نفسي ولا أكرر ما عزمت عليه ثانية!

ـ وقد تكون هذه الفنّانة الدافع الثاني لبداية تغير فيزيولوجي في شخصيتك!

كانت المرأة تنظر إليهما، عيناها امتلأت فرحاً، شابان أنيقان، وسيمان، يقفان بإعجاب، ينحتان عينيهما في أبنتها، لم يشعرا بها، كانا يتحاوران بهمس.. قال نوزاد:

ـ أشعر بعطش!

ـ سأطلب من هذه المرأة الماء!

مسكه نوزاد من معصمه، نحت عينين ملؤهما التوسل في عينيه.. همس:

ـ لا تفعل ذلك أرجوك١ أخشى.. (قاطعه):

ـ بلا خشية، هذا زمن الفرح، أهل الفن يمتلكون قلوب واسعة!

سحب شيرزاد يد نوزاد، تقدما من المرأة الجالسة، في تلك اللحظة انتبهت الفتاة لما يجري، سادها اندهاش وصمت، قال صاحبه للمرأة:

ـ لدي عاشق قتله الظمأ!

ضحكت الفنانة، سمع نوزاد رنّات كركرتها، " يا للهول، ردد مع نفسه، أنها تضحك مثل هه ولير ". سحبت المرأة من حقيبة نسيجية عبوتي بلاستك مياه معدنية، تناول صاحبه العبوتين، كان نوزاد به رعشات وجفاف، قال صاحبه وهو يشير لـ نوزاد:

ـ لم تخجل يا باش مهندس!

قالت المرأة:

ـ مهندس!

قال صاحبه:

ـ الثاني على كليته، مهندس قتله العطش!

كانت الفتاة تنحت عينيها في شاب وسيم، شاب خجول، شاب مهندس، في ملامحه ومضات حزن وسيم، رفعت قبعتها، حرّكت شعرها، شعر نوزاد برجفة كادت أن تلقيه أرضاً، ردد ثانية مع نفسه: "يا ألهي

هكذا كانت تفعل هه وليز". لم ينتبه لصاحبه وهو يقف أمامه لولا العبوة التي مدّها إلى فمه، هز رأسه، تناول عبوة الماء، كانت الفتاة قد أعادت قبعتها إلى رأسها، شربا وألقيا العبوتين إلى الفراغ الداخن الممتد صوب المدينة، ابتسمت المرأة لهما.. قالت:

ـ ما هكذا ترمى المهملات يا شباب ـ أشارت بسبابتها إلى شمالها ـ هناك مكان النفايات!

هزّا رأسيهما نادمين، وعادا من حيث قدما.

في صالة صاخبة

حين رفع نوزاد رأسه، رأى ساعة غرفته واقفة، قام من منامه، صعد فوق طبلة خشبية وأنزل الساعة الجدارية، لبرهة من الوقت ظلّ صامتاً، كان جالساً والساعة بين أحضانه، ناحتاً عينيه في فراغ متحرك، وضع الساعة جانباً، نهض وتحرك نحو نافذة غرفته، أزاح الستائر وألقى نظرة، رأى أمّه جالسة مع جارتها أم مريوان، عاد وجلس على كرسي الحاسب الإلكتروني، سقطت عيناه على الساعة، هز رأسه متمتماً:

ـ لا أجد هناك فرقاً بين حياتي وحياتك أيتها الساعة!

كانت هديّة تسلمها يوم التخرج، قرر أن يضعها في غرفته المتواضعة، فوق الصورة الكبيرة حيث هه ولير تتوسط المتخرجين والمتخرجات بشكل متميز ولافت للنظر، ترتدي ملابس كما لو أنها في ليلة زفافها. " طاووس في لحظة زهو ". كلام ما زال يحتفظ به، همسه زميله محمود بستاني في أذنه، لم تجذب هذا الكم الهائل من العيون في كل سنواتها، ربما أفاق الزملاء على برق خاطف، جمعهم على مائدة الصدمة، لم تكن تتحرك كما تتحرك في لحظة تخرجها، توزع جمالها، تنشر ابتساماتها بالتساوي على الكرنفال الشبابي، تلك الساعة ذات النغمات الكنسية

تشعره بـ هه ولير، كلّما دق منبهها، أو أراد أن يتأكد من الوقت، تذكره الساعة بآخر لحظة، وآخر وقفة، وآخر بسمة ورائحة في يوم لا ينسى.

تقدما معاً، وتسلما معاً الساعات والهدايا الأُخر مع زميل ثالث جاء ترتيبه بعدهم، فتى أربيلي وسيم وميسور، كان صديقاً مرغوباً محسوداً لكوكبة حسان الكلية، ثلاثة جاء ترتيبهم الأوائل على قسم الهندسة المدنية، ذهب الدون جوان الأربيلي صلاح الدين إلى مدينته، بعد توديع صاخب وتبادل التذكارات والتقاط الصور مع زميلاته، مضت هه ولير أيضاً دون أن تترك تلميحاً يفرحه وينعشه على أنه فتاها المرغوب.

قام من كرسي الحاسب وتوجه لرفع الساعة، أعادها إلى المسمار، سحب كرسي الحاسب إلى النافذة، راح متلصصاً ينحت بصره في كل شيء متحرك، أنتبه إلى أمّه، صارت الآن تجلس مع خمس نساء، عادة قديمة لم تتركها أمّه، هكذا تنقضي الأصائل، هنّ يتبادلن الحكايات، وهو من وراء ستارة نافذة الغرفة يقضي معظم وقته من غير رغبة، في تلك اللحظة تصاعدت نغمة من هاتفه النقّال، ظلّ جالساً لا يتحرك، عادت النغمات من جديد، لم يحرك ساكناً، كثيراً ما كان يهمل مكالمات تأتيه عبر أرقام غريبة، لم يرغب أن يرد فيما بعد أيضاً كي يعتذر إذا ما كان صديقاً، بعدما يراجع قائمة المتصلين، لم تمض سوى ربع ساعة على آخر مكالمة لم يرد عليها، لمح مركبة حديثة تقف بالقرب من النساء المتحاورات، من داخل السيارة وجه غير واضح الملامح يلبس نظارة سوداء يلقي سؤالاً، حاور أمّه، قبل أن

تتقدم المركبة وتقف أمامه، قام كمن بغت، هرع خارجاً، أستقبله صاحبه معاتباً:

ـ يومان وأنت لا ترد! جئت لأنهي رفقتي معك!

ـ ليس قبل أن تعرف حالتي يا عزيزي!

ـ ما بك يا عزيز أمّه ومدللها، فتاة ومضت، هل ينبغي إحراق حياتنا الحلوة من أجل فتاة لم تخلق من أجلنا!

ـ هيّا أدخل!

ـ أنت حقاً مجنون، هل نسيت الموعد؟

ـ أيّ موعد تعني؟!

ـ آه.. كان يجب أن أتركك أن تتدحرج من على قمّة أزمر، لتخلص العالم من سأمك!

ـ وضّح! عن أي موعد تتحدث؟

ـ هيّا.. أدخل وألبس، أ.. نسيت موعد المعرض الفنّي؟!

شُده وأطرق برأسه صامتاً، لطم جبينه بكفه.. تمتم:

ـ آه.. أنت محق حقاً، لو كنت أعلم بوجودك هناك، لتأخرت قليلاً كي أتخلص من عذابي!

ـ هيّا عجّل يا أخي، ليس أمامنا سوى أربع وعشرين دقيقة، عيب أن نكن مع المتأخرين.

ـ لم لا تتركني! أريد أن أعتزل وأموت، أنا إنسان فائض عن اللزوم!

ـ لا تجعلني آخذك عنوة بهذه الأسمال وأجعل الحاضرين يضحكوا عليك!

ـ آه.. أنسيتني، مبروك.. مبروك على المركبة!

ـ يوماً لك، قريباً.. قريباً.. جداً!

ـ لا.. لا.. لا تستهزئ، لن أجلس وراء مقوّد مركبة بتاتاً، المركبات من مقتنيات الأغنياء، إيّاك أن تمازحني!

ـ ولم لا! غداً تتعين وتخصص الحكومة لك مركبة آخر موديل!

ـ غداً.. غداً.. موت يا ..... ! وضع صاحبه كفه على فمه مقاطعاً:

ـ هيّا.. ألبس ودعنا نذهب، لا تشبعنا ثرثرات فارغة!

سحب كفه ودفعه إلى الداخل وهو يتبعه.

***

وصلا ساحة وقوف المركبات، نزلا ومشيا بضع خطوات، كانت هناك مجاميع من الناس تتقدم من كل جهة صوب صالة العرض الفنّي، لحظة دخلا، أنتبه صاحبه وهو يراقب الفتيات وينقل بصره بينهن، وجد الفنّانة واقفة تحاور كوكبة فتيات، مسك معصم نوزاد، سحب يده بعجالة. همس في أذنه:

ـ نسيت ساعتك!

ـ توقفت عن العمل وقذفتها!

ـ سأقتني لك ساعة من النوع الجيد، كن على ما يرام، أصطنع ابتسامة تليق بالموقف، أنت تعرفني جيداً، لا أرغب مرافقة المكتئبين!

تقدما معاً، كانت اللوحات تتوزع الجدران، كلّها تنطق بجمال الإنسان والطبيعة الساحرة، كان نوزاد كمن يُسحب عنوة إلى مكان ثقيل،

يتعثر بمشيته، عبرا مجاميع بشرية واقفة أمام اللوحات، بعضهم يحمل كاميرات تصوير وآخرون يبرزون عدسات هواتفهم النقّالة، كانت الموسيقى تنداح هادئة داخل القاعة الطويلة. همس صاحبه:

ـ أخرّتنا عن لحظة الافتتاح!

صمت نوزاد وهو يرمقه، لم يرغب أن يتكلم، وصلا نهاية القاعة، وقفا أمام لوحة زيتية، فتى كردي يتسلق جبلاً عملاقاً، يحمل على ظهره طفلان، همس صاحبه:

ـ أنظر.. عليك أن تغدو مثل هذا الفتى، عليك أن تتسلق الحياة، أن لا تستسلم!

ـ وهل للحياة درج كي أتسلقه!

حدجه صاحبه بنظرة غاضبة، مسك معصمه وسحبه، أمام لوحة أخرى وقفا، تناغم صوت من وراءهما، التفتا معاً، كانت الفنّانة، مشرقة الوجه تقف، قالت وهي تقدم عبوتي ماء:

ـ أرجو أن تكونا عطشى!

قال صاحبه:

ـ ماء الدنيا لا يرويه، صاحبي مصدوم!

قالت:

ـ عجباً.. شبابنا يتظاهرون بالتعب والكآبة والهرب من الحقائق!

قال صاحبه:

ـ صاحبي مهندس معماري، مهندس بلا وظيفة، عاشق للفن النبيل والأصيل!

ابتسمت الفنّانة، راحت تتفحصه بتأنٍ، شاب وسيم يرتسم الحزن بكل معانية وتجلياته على ملامحه، حزنه عميق جداً، يبدو ناطقاً، بعين الفن رأت تلك الأوجاع والمتاعب والأحلام المتحطمة، أشياء غامضة تتوامض، كأنها رؤوس أسماك صغيرة تستنجد بحثاً عن أوكسجين، أو صنارة صيّاد.. قالت :

ـ تجمع الهندسة والفن وشائج متداخلة. الهندسة رسم أيضاً!

قال صاحبه:

ـ دعينا نباركك أولاً، رغبنا أن نسبق الحاضرين، لكن الظروف حالت دون ذلك!

ـ المهم جئتما، أنا فرحة بكما، لم تخلفا الموعد!

ـ نريد صورة معك، أرجو ذلك ولكن بلا إحراج!

ـ مضى زمن الإحراجات، نحن في واقع جديد، الفنّان منذور من أجل سعادة الناس!

أشارت إلى المصوّر، تقدم شاب ووقف أمام الثلاث، برقت العدسة وامضة من عدة زوايا.. قالت:

ـ وأنت أما لديك رغبة للكلام!

ـ أ.. أ.. نا!

ـ نعم أنت أيها الحزين الوسيم!

تدخل صاحبه:

ـ تكلم يا حضرة المهندس، أعطِ رأيك الصريح!

تكلم نوزاد:

ـ لوحاتك جميلة!

أجاب صاحبه:

ـ من الجميلة، فنّانتنا أم لوحاتها، أم الأثنين معاً؟

شعر بظلام يسود عينيه.. تلعثم:

ـ ها.. ها.. ماذا.. ماذا تعني؟

تدخلت الفنّانة:

ـ دعه، لا تحرجه!

تمالك نوزاد نفسه.. قال:

ـ أرجوك! لا تأخذي كلام صاحبي على محمل الجد، هو يحب المزاح!

قالت:

ـ المزاح والفن صديقان، على الفنّان أن يكون شفافاً ورقيقاً ويمتلك روحاً مرحة، أرجو أن تستمتعا هذا اليوم، لدي بعض الضيوف، خذا راحتيكما، ربما سنلتقي فيما بعد!

مبتسمة انسحبت. قال صاحبه:

ـ ستظل غارقاً في كوابيسك، أفق يا عزيزي، كانت تحفر عينيها بلهفة العطشى للماء فيك!

ـ ستورطني بمشكلة ما!

ـ المشاكل مع الجنس الناعم لها حلاوة يا عزيزي!

ـ لست مستعداً لإهانة ما!

ضحك صاحبة عالياً، في تلك اللحظة التفتت فتاة كانت تتنكب حقيبتها.. قالت:

ـ ما الذي يضحكك؟!

نظر صاحبه إليها، هز رأسه وأجاب بأدب:

ـ لا.. لا.. ليس هناك ما يضحكني سوى صاحبي!

قالت:

ـ صاحبك؟ وما به، يبدو أنه أنيق وهادئ، لا.. لا توهمني يا ولد!

ـ صدقيني أنا ضحكت من كلامه!

ـ وما هو كلامه؟

شعر صاحبه بإحراج مفاجئ، كان ينظر بصمت، بينما الجموع البشرية تقف وتنظر إلى اللوحات وتمشي من حولهم.. أردفت:

ـ هل تحب الفن!

ـ لولا حبي له لما جئت إلى هنا!

ـ ولكنك ضحكت!

ـ قلت من كلام صاحبي!

ـ لا.. لا أعتقد أنه قال ما يضحكك!

استدارت الفتاة ومضت، وقف يواريها حتى اختفت. تكلم نوزاد:

ـ كدت أن تهوي في قاع مشكلة!

ـ أيّة مشكلة؟ ألم أقل لك المشاكل مع الجنس الناعم متعة ووسيلة سعادة!

ـ هيّا نواصل تجوالنا، لا يجب أن نغدو منحوتين هنا!

سارا من جديد، وصلا زاوية، وجدا حشد فتيات، تقدم صاحبه من اللوحات، التفت إلى الوراء وأشار برأسه، تقدم نوزاد، نقل عينيه حيث تشير سبّابة يد صاحبه، تحجرت عيناه، توقف تنفسه، ظلّ لوقت لا يعرف كم إستغرقه وهو يحدق في عالم غامض يتحرك، استمرت الغشاوة تضبب في عينيه الأشياء، كان قلبه ينبض بعنف، ربت صاحبه على كتفه، تلك الربة جعلته يستعيد بعض الوضوح، رأى خمس لوحات محجوزة، قرأ جيداً وبألم أسم حاجزة اللوحات الخمس، لقد كانت هه وليز سليماني.

هه وليز سليماني

هي وحيدة ثري، قرّة عينه وفلذة كبده ومساحة فرحه، كبرت بريئة، وصارت مهندسة، محبوبة كانت في طفولتها، يوم كبرت غدت مصباحاً لا ينطفئ، أينما تكن ثمة فتيات يصاحبنها، شبّان الوقت يحومون حولها، لافظين حسرات الهوى، ينطقون بوضوح ما تسكنهم من وجع الرغبة، لم تمر سوى ستة أشهر على تخرجها، وجدت نفسها أمام سؤال غامض، سؤال باغتها في وقت لم تكن مؤهلة لأسئلة الحياة الكبرى، كانت في غرفتها تبحث في المواقع الإلكترونية عن أخبار وآخر لوحات الفنانين والمعارض الموسمية، دخلت أمّها. قالت:

ـ لا يصح جلوسك هنا، لدينا ضيوف!

ـ من هم؟

ـ ضيوف من مدينة هه وليز!

ـ وهل لدينا أقارب هناك؟ أنت لم تخبريني من قبل بذلك يا ماما!

ـ هيّا رتبي نفسك وتعالي، ناس أكابر، جاءوا من أجلك!

ـ من أجلي!

نظرت في عيني أمّها، كانت تحمل لها سؤالاً واحدا، سؤال لم تعرف جوابه، هزّت رأسها، ونثرت شعرها إلى الوراء، بدت كأنها خارجة من الحمام، وجهها يلمع تحت وهج النيونات، سحبت نفساً عميقاً. تمتمت:

ـ لا أفهم ما تقولينه!

ـ حين تأتين ستعرفين كل شيء!

مستغربة خرجت أمّها، ظلّت للحظات جالسة، تريد أن تعرف لم تريدها أمّها، لم يسبق أن نادتها من قبل، كان الضيوف يأتون ويمضون، لم تعنيها من هم، لم بالضبط وفي هذا المساء جاءت إليها أمّها وطلبت منها الحضور؟ من هم القادمون إليهم من هه ولير؟ استغرقت أثنتا عشرة دقيقة وهي ناحتة بصرها في سقف الغرفة، قبل أن تنتبه إلى باب غرفتها يفتح برفق، وجدت نفسها مرة أخرى أمام أمّها وهي تسبق وافدة، دخلت فتاة متوهجة الوجنتين، عينان زرقاوان، غاطسة في حلي وأساور وثياب كردية باذخة الألوان. تمتمت:

ـ ما شاء الله، نور على نور!

تدخلت الأم قائلة:

ـ ليست على ما يرام، لكنها سترتب نفسها وتطل عليكم!

قامت واستقبلت الزائرة، تعانقتا. قالت لها:

ـ عذراً.. أشعر بصداع منذ الصباح!

ـ معذورة يا أمّورة!

قالت هه ولير:

ـ تفضلي أجلسي!

ـ لا أريد أتعابك معنا!

توادعتا بالقبلات، مضت الزائرة مع أمّها على أمل أن تعودا بعد أسبوع تحديداً.

قالت لها أمّها:

ـ ليس من صفاتنا المعروفة عدم استقبال الضيوف!

ـ لا أعرفهم يا أمّي!

ـ جاءتا تطلبان يدك!

ـ يدي؟

ـ تريدانك زوجة!

ـ زوجة؟

ـ ماذا دهاك؟ ألم تعرفي ما معنى زوجة!

ـ ها.. أعرف!

هزت الأم رأسها خارجة، عادت إلى جهاز الحاسب، من جديد بدأت تداعب الأزرار، وجدت أناملها مرهقة، ليست لديها رغبة لمواصلة ملامسة الأزرار، أطفأت الجهاز وألقت بنفسها على فراشها، نحتت عينيها في السقف، أشياء غامضة وغريبة تجري من حولها، وجدت التفكير يتعبها، قامت وتوجهت نحو أمّها، كانت في المطبخ، تقدمت على استحياء، عانقتها طابعة قبلتين طويلتين على الوجنتين الرطبتين. قالت:

ـ لست على ما يرام، أنا متعبة يا مام!

ـ لا تهدري الفرصة!

ـ ولكن أنا مازلت حديثة التخرج والتعينات لم تظهر بعد!

ـ ناس أكابر ولديهم أملاك ونفوذ، عليك أن تقبضي على الفرصة بأسنانك، أنها لن تتكرر!

ـ حسناً يا مام، لا أريدك أن تغضبي علي!

ألقت بالصحن من يديها على الطاولة، تقدمت من البنت، احتضنتها، شعرت البنت بأن أمّها بدأت تبكي، سحبت نفساً عميقاً، سحبت البنت نفسها. قالت:

ـ لم البكاء يا مام!

مسحت الأم عينيها، حاولت أن تصطنع ابتسامة. قالت:

ـ أعرفك أنك ستوافقين، سأبقى وحيدة بعد ذهابك إلى بيتك الجديد!

ـ آه.. يا مام! لا أريد أن أكون سبباً لعذابك!

ـ كلا.. كلا.. بل سأفرح بك، بعدما أختار لك زوجاً ملائماً!

دق جرس الباب، هرعت هه ولير، وجدت نفسها أمام والدها، فتحت الباب الرئيسي الخاص بموقف المركبة، دخلت المركبة، هبط والدها، استقبلته بقبلة سريعة، بدت أكثر نشاطاً، دخلا معاً وهما يحملان البضائع، كانت الأم واقفة في الصالة، تقدم الأب ووقف على مقربة منها. قال:

ـ في عينيك دموع!

ـ دموع فرح!

ـ آه.. يا ترى فرح من؟!

ـ فرح كبير سنقتسمه بالتساوي بيننا، أدخلا! وراءنا سهر طويل وكلام كثير.

خطوبة هه ولير

عادت الزائرتان بعد أسبوع.

كانت هه ولير خارج المنزل، ذهبت مع جارتها لحضور افتتاح المعرض الفني المقام في قاعة الفنون والمسرح العائدة لفرقة المسرح الكردي، قبل الغروب بقليل عادت، وجدت صالة البيت تضج بالضيوف، لم تكن تهتم بالموضوع مذ دخلت عليها الزائرة غرفتها، كانت تعيش في عالمها الخاص، عالم الفن الراقي واللوحات النادرة، كانت منشغلة بأمورها الخاصة، متابعة الفن وأخباره، التصفح في المواقع الفنية عبر الإنترنت، ملاحقة آخر صيحات الموضة، فرحة عادت من المعرض، تهيء أمكنة للوحات الخمس التي حجزتها، لم يبخل عليها الأب، دفع ما طلبت فنّانة المدينة من أسعار باهضه.

الزائرات القادمات من هه ولير لم تشغل نفسها بهن مذ غادرن، مرة واحدة تم مناقشة الموضوع بجدية وروية، لحظتها. قال الأب:

ـ عائلة معروفة لها صيت في الغنى والمناصب!

قالت الأم:

ـ أرجو منها أن لا تفرط بفرصتها الذهبية!

أجابت بخجل:

ـ ليس من طبعي أن أغضبكما، كل ما تريدانه سأتقبله بفارغ الصبر!

لم يتناقشوا في القضية خلا تلك الليلة، ليلة مبارحة الزائرتين.

وجدت نفسها بين قوسين، وقفت في الحديقة، اصوات نسائية وأصوات رجال، الأم تمرق فرحة، تقدمت ببطء واستحياء، دفعت الباب المفضي إلى المطبخ، استقبلتها الأم وهي تنثر رذاذ فرح غامر عليها، لم تتوقع أن الموضوع سيغدو أكثر جديّاً بهذه السرعة، قادتها الأم وأدخلتها على الحضور الذي وقف من دهشة مباغتة.

صاح ثغر:

ـ بسم الله ماشاء الله على هذا القمر السليماني!

أطرقت برأسها، خجولة، مرتبكة، وجدت نفسها مقادة من قبل تلك المرأة التي ولجت غرفتها في تلك الليلة، استجمعت المشهد في ذهنها، مشهد ما أرتسم من ملامح وأسمال تحتشد في صالة الضيوف، نساء مترفهات، ورجال رزنين، جاءوا من مدينة هه ولير كما كانت تعرف جهة طالبي يدها، ظلّت مطرقة الرأس، قبل أن تسمع صوت أمها:

ـ أعذروها! خجولة أكثر مما يجب!

سمعت صوت امرأة:

ـ الخجل لا يليق بالحلوين يا هه ولير!

رفعت رأسها، تريد أن تتأكد، تريد أن تعرف أنها في الواقع، ليس ثمة كوابيس أو أحلام يقظة، تلاقت العيون، أبتسم الولد الوسيم، تحجرت شفتاها، شعرت بجفاف قديم يصدع لسانها، كان الخطيب ينظر إليها بعينين تعرفهما، عينان مليئتان بالفرح، تلك هي نظرات أصحاب المال والجاه في

زمننا، حتى نظراتهم وابتساماتهم مرسومة ومهذبة وفق القياسات المادية المطلوبة لتحقيق أمانيهم، سمعت صوتاً هادئاً:

ـ كيف حالك يا هه ولير؟!

صوت ناعم ليس بغريب، صوت معروف، لكن غشاوة الخجل حجبت الرؤية، لم تعد ترى الأشياء كما هي، لملمت وعيها المتناثر، وجدت نفسها جالسة بكل كيانها أمام شاب لكم حاول أن يدنو منها، وظلّت لا تبالي بمحاولاته، سمعت صوت أمّها:

ـ ردّي سلامه يا بنت! الولد يرحب بك!

رفعت بصرها من الأرض ونقلته إلى أمّها، كانت فرحة، كان أبوها يحاور رجال بدوا مهمين، عن المال والأعمال، عن تلك الأيام السود في تاريخ المدينتين، تاريخ ما كان يجب أن يكون، أيام الكوابيس وحرب الأخوّة البغيضة، كانت هه ولير شاردة الفكر، تعتمل فيها بوادر فرح تتطاير من قسمات الأم الفرحة، وكلام الأب المنسجم مع ناس تعرف فقط أبنهم، زميل الدراسة، الولد الغني كما كانوا يسمونه، انتبهت ووجدت يدين تمدان قدحاً من العصير، كانت جارتها نسرين، زميلة تجوالها ومرافقتها إلى المعرض الفني الذي أقيم بمناسبة يوم الحرية، كيف دخلت ومتى؟ شيء غير ذي أهمية بالنسبة لها، التقت نظراتهما، غمزت وهمست في أذنها:

ـ حلو وغني ماذا تريدين بعد؟!

ارتسمت ابتسامة ودودة على ثغرها، كلّهم فرحون، وحدها تحاول أن تجد لنفسها موقعاً مألوفاً، تريد أن تفرح، تريد أن لا تفرح، عالمان متضادان يجذبان بعنف، عالم السرور، وعالم الحزن الذي يكلل قسمات الأم بعد خروجها من الدار، دار الطفولة، دار الأب والأم والجارات العزيزات، سمعت الصوت ثانية:

ـ أما زلت تعشقين الرسم؟ جلبت لك أجمل الأعمال الفنية في مدينتنا هدية نجاحك!

قالت الفتاة التي زارتها في غرفتها في زيارتها الأولى:

ـ حكى صلاح الدين لنا عنك كثيراً!

في تلك اللحظة تأكدت هه ولير أن التلميذ الغني صلاح الدين معشوق الفتيات، زميلها لسنوات أربع في الكلية، هو الصقر القادم من رماد الذاكرة ليأخذها إلى عرين بعيد، بعيد جداً عن مدينة طفولتها السليمانية.

حيرة نوزاد

ـ لم تسهر يا بني؟

ـ النوم يهجرني يا أمّي!

ـ أستحم كي تتخلص من أرقك!

ـ الأرق قرين الفقراء، ليس ثمة شيء يمحقه يا أمّي!

ـ حاول تلهية نفسك بشيء يرهقك!

ـ كلّما أنام تحاصرني الكوابيس، كأنها شياطين تأتي لخنقي!

ـ كوب حليب دافئ يرخي أعصابك!

ـ ليس المسألة مسألة نوم يا أمّي، الحياة لم تعد تحتملني!

ـ لا عليك يا بني، لابد وأن تأتي فرصتك!

ـ كلّ من تعين أوطأ درجة منّي!

ـ المال تسبب في خراب الدنيا!

قام من منامه، ظلّت أمّه ترمقه من فراشها، مشى ووقف أمام النافذة، بدا الليل مغسولاً بالنجوم، صمت مطبق، فتح درفتي النافذة وراح يسحب من الهواء الرطب المنعش، فتح عينيه، رأى نسراً عملاقاً قادماً من أعالي الشمال، من حيث القمم الشاهقة، حام في سماء المدينة، فارداً جنحين عملاقين، عيناه تبرقان ضوءً فسفورياً، كأنه يستطلع أو يبحث عن طريدة

فلتت من بين مخالبه، وجد طريدته في بقعة ما، أنقض على شيء جميل لامع ومتوهج، ندت منه صرخة، وجد أمّه واقفة جنبه. همست:

ـ ماذا بك يا بني؟

ـ لا.. لا.. لا شيء يا أمي!

ـ ولكنك صرخت؟!

ـ أنا.. أنا.. لا.. لا.. لا..!

ـ أنت مريض يا بني، تعال لتنم!

عاد إلى الفراش برفقتها، رشف من قدح الماء. تمتم:

ـ أ.. حقاً أنني صرخت؟

ـ أنت فعلت ذلك، أرجوك يا ولدي لا تتعبني، هل في بالك أمر ما؟

ـ كلّما أنام داهمني نسر كبير، آتٍ من القمم الشاهقة، يحوم فوق المدينة، يحاول أخذ شيئاً أراه متوهجاً، حين ينقض عليه، أشعر بمخالبه تنغرز في قلبي، شيء ما ينخلع من جسدي يا أمّي!

ـ ربما رأيت في المعرض أشياء من هذا القبيل وترسخت في بالك!

ـ في المعرض!

ـ نعم في المعرض! شيرزاد حكى لي عن الفنّانة، قال أنها كادت أن تجن لرؤيتك!

ـ أنه يمزح معك، شيرزاد يحب التورط مع البنات بالمشاكل!

ـ حدّثني عمّا جرى بينكما على قمّة أزمر!

ـ وماذا قال أبو المشاكل؟

ـ قال أشياء كثيرة وطرح علي فكرة أن نطلبها لك!

ـ ألم أقل أنه يمزح!

ـ ولم يمزح معنا، كل شيء سيمضي وفق الأصول!

ـ كيف ذلك وأنا مجروح يا أمي؟

ـ هه ولير صارت من الماضي، عليك أن تنساها!

ـ ماذا؟ هه ولير ومن أين عرفت ذلك؟

ـ شيرو حكى لي عن كل صغيرة وكبيرة، كدت أن ترتكب أثماً كبيراً، لو لم يكن حاضراً في تلك اللحظة، لهرعت إلى هناك وألقيت بنفسي وراءك!

نهض ودنا منها، ما أن لمح الدموع تغرق عينيها، مسح دمعها بأناملٍ مرتجفة، مسك كفّي أمّه، طبع عليهما قبلتين بعدما رفعهما، سحبها إلى سريره، أجلسها وجلس قبالتها. قال:

ـ ليس من أجلها فقدت رشدي يا أمّي، بل من أجل النتيجة النهائية، فقدت المرتبة الأولى!

ـ أنت تطاردها حتى في منامك!

ـ لا أعرف يا أمي، هي ملكت كل كياني!

ـ بنت أثرياء لسنا من طينتهم، لا طاقة لنا على مطالبهم!

ـ لا أعرف ماذا أقول!

ـ لم لا تحكي لي عن الفنّانة!

ـ ماذا أحكي؟

ـ لم لا تفكر بها!

ـ فنّانة مدينة وشهرتها خارج الإقليم، لا أعتقد أنها ستوافق على معدم لا وظيفة له!

ـ الوظيفة ستأتي ولو بعد حين، تغيرت البلاد والمشاريع بدأت تتوسع!

ـ لا.. لا.. يا أمي.. لا.. لا..!

ـ ستغرق نفسك في الكوابيس وتغرقني معك بالحزن!

في تلك اللحظة رنّ الهاتف، كان شيرو على الطرف الآخر، كما كانت أمّه تناديه، جاء صوته ناعماً:

ـ أما زلت تفكر يا باش حزين؟

ـ بم أفكر يا أبو المشاكل العاطفية.

ـ بـ هه ولير؟

ـ بدأت تمزح في وقت غير لائق!

ـ مررت قرب البيت، وجدت لديهم ضيوف أكابر!

ـ دائماً لديهم ضيوف أكابر يا عزيزي!

ـ كلا يا نوز، وجدت أمام منزلهم رجال حراسة مسلحين، منعوني من المرور، سألت امرأة أشارت لي أن أوصلها، قالت: لديهم خطّابة لأبنتهم هه ولير!

ـ ماذا تقول؟ ألست تمزح يا صاح؟

ـ لن أمزح من الآن فصاعداً، ستذهب هه ولير بعيداً كما قالت لي جارتها!

ـ وماذا قالت؟

ـ شاب ميسور جداً ومن مدينة هه ولير جاء يطلبها!

ـ ميسووور و..مـ..ننن.. هه.. و.. ليييير!

ـ نعم يا أخي!

ـ أرجوك.. أرجوك.. أنت تمازحني!

ـ وداعاً.. غداً سأصطحبك لتسمع وترى بأم عينيك!

قفل الهاتف، قام وتوجه ثانية إلى النافذة، كانت الساعة حوالي الحادية عشرة وسبع عشرة دقيقة، تساءل عن هذا القادم لحرمان المدينة من السراج المتوهج، من هو صاحب الحظ السليم والمقام العالي، من هذا الميسور المنافس على فتاة يراها كل عالمه القادم، حاول أن يبسط ما في ذاكرته من ممتلكات على فراش الليل كي يلملم الملامح الكاملة لهيئته، مشتت الفكر كان، مشوّش الذاكرة، ليس لديه قدرة على التفكير، خائراً يقف:

ـ آآآآآه..!

ندت منه تنهيد طويل، وجد أمّه ثانية تقف وراءه، شعر بكفها يهبط على كتفه. همست:

ـ لا تعذبني يا أبني!

مسحت حبات الدموع التي تلألأت في عينيه، قبل أن تسحبه إلى الفراش، رفض أن يستلقي. قال:

ـ هل حقاً ما سمعت؟

ـ ما الذي سمعت؟

ـ أمّي أرجو أن يكون قد ألقى مزحة جديدة!

ـ آه.. لا يتركك شيرو أبو الفتيات!

ـ هل حقاً ستذهب هه ولير؟

ـ لا تعذب نفسك أرجوك!

ـ كيف.. كيف.. ومن جاء ليسرقها منّي؟

ـ هي فتاة ولديها أقارب وهم أثرياء!

ـ أمّي لو ذهبت، سأذهب إلى هناك إلى هنااااك!

أشار بسبابته نحو جهة الشمال، حيث السواد المخروق بنيونات ترسل أشعة واهية، سحبت أمّه شهيقاً وزفرت بحرقة. صاحت:

ـ لم تسكب الزيت على مرجل حزني يا ولدي؟

ـ أمّي.. أمّيييييي!

مثل محموم راح يهذي، فاقداً الحواس، مثل ممسوس في لحظة هوس، قامت أمّه وهرعت صوب المطبخ، عادت وبيدها قرص دواء مسكن وكوب ماء، جلست أمامه، وجدته شارد الفكر، وضعت القرص في فمه وقرّبت الكوب من ثغره. قالت:

ـ أشرب! ستهدأ، ليس بوسعنا أن نحتمل هذه السهرات المأتمية!

شرب الماء، قرّب فمه من يد أمّه، قبلها، مدّت يدها الأخرى وراحت تمسد فروة رأسه. همس:

ـ لا.. لا.. أعدك بعدم تعذيبك مستقبلاً يا أمّي!

ـ أرجوك تمدد ونم، توغلنا في منتصف الليل!

تمدد في منامه، ألقت أمّه الملاءة عليه، هدأ وراح ينحت عينيه في السقف، حاول أن يجد مخرجاً ليتخلّص من مأزق الكوابيس، كل المسالك بدت عائقة، وديان وحفر وأسلاك شائكة، كلّما تاه بعيداً وجد نفسه ناحتاً بصره في تلك اللوحة المعلّقة أمامه، هديّة الفنّانة له، ما أن شدد كبير إعجابه بها، اقتنصت تلك الدهشة من كثرة نظراته فيها، حجزتها له رغم الطلبات المتزايدة عليها، فجأة لمح النسر يتحرك، برقت عيناه بضوء ساطع، متجهاً إليه طار من اللوحة، شعر بمخالب تنغرز في جسده، شيء ما أقتلع منه:

ـ آآآآآآآآآ..!

ـ ماذا جرى لك؟

ـ ها.. لا.. لا.. لم يحدث شيء!

ـ مزقت سكون الليل بصرختك؟

ـ أأأأأأأنا..!

ـ لا.. أنا التي صرخت!

شعر بخجل يمسكه عن الكلام، لم يجد سوى لعبته الدائمة، رفع كفها إلى فمه، رددت الغرفة صوت قبلته، قبل أن يسحب الملاّءة ويغطي وجهه وينام.

داخل المركبة

كان شيرو يقود مركبته بهدوء، منسجماً مع كريم كابان مطربه المفضّل، كان نوزاد صامتاً ينظر إلى الأشياء المارقة، تمر عيناه مرور الكرام، البنايات المزججة بأنوار إغرائية جاذبة، الناس المتقاطعون ، المركبات المارقة، المحال التجارية الضاجة بالزبائن، أمّه في المقعد الخلفي مسرورة، تستمد سعادتها من أفراح الناس، بعدما التمست بوادر مسرّة قادمة إلى وجه نوزاد، وصلوا مكاناً مزدحماً، كانت المركبات واقفة تزعق، أوقف شيرزاد مركبته. قال شيرو:

ـ حادث جديد على ما يبدو!

قالت أم نوزاد:

ـ ماذا دهاهم؟ مثل المجانين يسوقون، كأنهم يريدون الذهاب إلى قبورهم!

أجاب نوزاد:

ـ جاءوا من الخارج وهم يحملون دولارات العالم، من حقهم يتخبلون!

ـ ولم لم تذهب أنت مثلهم يا ولد؟ لكنت الآن صاحب مال كثير ومركبة آخر موديلّ أجابه شيرزاد.

قالت الأم:

ـ لا.. لا.. كنت لا أسمح له الذهاب كما فرّ الكثير من شبابنا أبّان الفترة المظلمة، ذهبوا ليكونوا خدماً للكلاب أو غاسلوا صحون في مطاعم النصارى واليهود!

قال نوزاد:

ـ أصبحوا أثرياء المدينة وباتوا يتحكمون برقاب الوضع العام!

قالت أمّه:

ـ سيغرقون في أوساخ الدنيا، غداً كل شيء يقيّم بثمنه، ثمنه النقي والأصيل!

صاح شيرو على فتى يبيع المرطبات:

ـ لم كل هذا الازدحام يا ولد؟

جاءه صوت الصبي واهناً:

ـ ضربت سيارة العرس أحد السكارى في الشارع!

صاح شيرزاد:

ـ على ما يبدو أن هذا العريس خطف خطيبة السكران!

ضربته أم نوزاد من الخلف. قالت:

ـ أسكت يا ولد!

قال الصبي:

ـ هل أنت سكران؟

لولا يد نوزاد لهبط من المركبة وركض وراء الصبي الذي راح يشق زحمة المركبات. قال نوزاد:

ـ تستاهل يا أخي!

أجابه شيرزاد:

ـ أين يروح منّي؟ سينال جزاءه، أعرفه دائماً هنا يبيع المرطبات!

تدخلت أم نوزاد:

ـ أترك الصبي لحاله، لنعرف حكاية هذا العرس المشئوم!

قال شيرزاد:

ـ في هذه الليلة لا ينامان من الصدمة!

أجاب نوزاد:

ـ المشاكل سببها تحريف الأشياء الفطرية!

رمقه شيرزاد. قال:

ـ بدأت تتفلسف يا باش مهندس، حالة روتينية حصلت بسبب الازدحام البشري والاختناق المروري!

ـ ومن المسئول عن كل هذا؟ قال نوزاد.

ـ الحكومة طبعاً! أجابه شيرزاد.

أجابت أم نوزاد:

ـ وما دخل الحكومة بالموضوع؟

قال شيرزاد:

ـ الحكومة سمحت بدخول المركبات المستهلكة للبلاد، وشوارعنا لم تتوسع بوصة واحدة!

ـ أشياء كثيرة ومهمة أمام الحكومة، مشاكل كثيرة بسبب التغير غير المتوقع! قال نوزاد.

ـ لا تنسوا العائلات التي هددت بالسلاح صارت تزحف إلى الشمال! قال شيرزاد.

ـ الناس تريد العيش بأمان! قالت أم نوزاد.

توقف الحوار، بدأ نوزاد يرسل نظراته إلى السماء، نجوم كابية، ضجيج المركبات تتصاعد، ظلّ صوت طبل يتردد، يرافقه صوت أكف تصفق، أسترسل يبحث عن قناعة تامة، قلبه بدأ ينبض بشيء من التسارع، وجد نفسه من جديد محاصراً برغبة غير غامضة، أراد يقيناً كي يقنعه أن هه ولير صارت الآن ملكاً لشخص آخر.

تأكد نوزاد من الموضوع، أخذه شيرزاد إلى تلك المرأة التي أوصلها، كانت واقفة في الباب. تقدما منها، عرفته المرأة. قال لها:

ـ ما هو آخر أخبار العرس يا خالة؟

ـ بعد أسبوع!

كان نوزاد صامتاً، قلبه يكاد أن يتوقف، ينظر ويسمع وعينه على باب كل يوم تخرج منه وتعود هه ولير، أفاق حين مسكه شيرزاد وبدأ يسحبه إلى المركبة، صدق ظنّه بعدما ظلّ النسر يتحرك من اللوحة المعلّقة على الجدار في غرفته، يخطو خطوات تقافزية قبل أن يحلق ويحوم وينقض عليه، مازال يشعر بمخالب تحفر في مكان تواجد القلب، لكن قلبه ظلّ يخاصم الواقع، لن يرضخ لكلام الآخرين، راح ينبض تلك النبضات التي

كانت تحدث عندما تكون هه وليز ماثلة، الموضوع بالنسبة له انتهى، هكذا هي الوقائع، بقى شيء واحد يريد أن يعرفه، من يا ترى هذا الفارس المحظوظ، ما شكله؟ ما يحمل من شهادة باتت لا تنفع في يومنا هذا، ولا في الأيام القادمة، بعدما صارت تُشترى في المنافي، أو في أسواق التزوير، وبورصات العلاقات الخاصة بين أصحاب السيادة، كان ينشغل بين لحظة وأخرى بما يتوارد إلى ذهنه من هواجس، قبل أن يرجع من المتاهات الفكرية وهواجس قلبه العازف بارتباك واضح.

وجد المركبات تندفع من جديد زاعقة كأنها تحررت من معتقل أزلي. قال شيرزاد:

ـ سنقضي الليلة داخل المركبة.

قالت الأم:

ـ أريدك أن تتعبه كي يسقط في فراشه وينام!

قال..(شيرو):

ـ سأفصّخه مثل فيترجي يفصّخ سيارة أصبحت خارج نطاق الخدمة.

نظر نوزاد إليه، وجده يضحك. قال:

ـ تمنيت أن أستطيع الضحك، كي أزيح أشيائي الحزينة من دنياي!

قالت أمّه:

ـ طيلة حياتك لم تضحك كي تضحكني معك!

ـ الضحك لم يخلق لنا، الضحك للأغنياء يا أمي!

أجاب.. شيرو:

ـ وماذا بك يا باش مهندس؟ لم لا تغدو ثرياً!

ـ العمل لا يثري يا صاحبي!

ـ لا تريد السفر كي تحوّل لأمّك الدولارات، لا تريد اللهاث في الدنيا من عمل لعمل، قل لي هل تريد أن تتزوج ثرية كي تغدو غنياً!

قالت الأم:

ـ المال النظيف لن يبقى، المال مهما كثر ليس بوسعه صناعة الرجولة!

ـ كل إنسان لا يملك مالاً لا ينظر إليه ولن يحترم! رد شيرزاد.

ـ تغير كل شيء في البلاد، لابد في الغد يخصص مكاناً لكل إنسان صحيح، حسب نوعه ودرجة علمه، هكذا كنّا نسمع من آباءنا عندما كنّا صغاراً. قالت الأم.

قال نوزاد:

ـ دمرت أخاك من كثرة ما أرسل إليك دولارات!

ـ لديك أبن عم في الخارج، فاتحه بظروفك الحزينة، كي يسعفك بـ دفتر سرور! أجابه شيرزاد.

ـ قطع صلته له بنا، هو ثري وأنا معدم!

قالت الأم:

ـ لا.. لا، لن أسمح له طلب العون من غاسل صحون اليهود والنصارى!

قال شيرزاد:

ـ لينتظر ميسورة الحال، كي يواجه الحياة الصاعدة!

وقفت المركبة قرب شجرة سرو، كان هناك رجلاً يجلس وراء طاولة كبيرة قرب عربة، نزل شيرزاد متقدماً منه، عاد وهو يحمل ثلاث علب معدنية مياه غازية، من جديد بدأ يسوق، بدأت الأيدي تفك أقفال العلب. قالت الأم:

ـ أقترح العودة، جاوزت الساعة منتصف الليل.

قال شيرو:

ـ لا.. لا.. ما زالت به عروق تنبض بالكآبة يا عمّة!

ألتفت إليه نوزاد وجده يضحك. قال:

ـ سأغسل شعرك الحلو بهذا(الببسي) الفاسد!

ـ سآخذك في هذا الليل إلى هناك، حيث كدت أن تغدو بن فرناس السليماني، أطير بك حول العالم بالمركبة!

ضحكت الأم. قالت:

ـ كلّما أتخيل ذلك الموقف، أصب لعناتي على المدرسة والدراسة، أقول ليت لم أرسله ليكون مهندساً بلا خدمة، كاد أن ينتحر من اجل ماذا، من أجل فتاة، يا لكثر الفتيات في يومنا هذا، يا لرخصهن في زماننا هذا!

ـ آآآآآ.. هاااااا.. يا عمّة، فتياتنا لسن رخيصات، لا.. لا.. اطلبي يد متسولة، سيثقل كاهلك بمطالبها التعجيزية!

ـ تلك هي الطامة الكبرى، كل واحدة تريد أن تكون الأغلى! أجابت الأم زافرة.

ـ دنيانا مظاهر زائفة، العالم سبقنا وأستعد للعيش فوق القمر، نحن ما زلنا نلهث وراء المظاهر!

كانت المركبة تشق أحشاء الليل الهادئ، وكانت المركبات تقل شيئاً فشيئاً في الشوارع، قالت الأم:

ـ أرجو أن تعد بنا يا شيرو!

ـ أما زال ذلك مبكراً. أجاب ضاحكاً.

ـ عد بنا!

ـ ليس قبل أن أجد بيت الفنّانة!

ـ آه.. يا لك من ماكر! هتف نوزاد.

قالت أمّه:

ـ حين أراها سأفاتحها من غير تردد!

صاح شيرو:

ـ سآخذك إلى منزلها الآن.. الآن.. وليس غداً!

صاح نوزاد:

ـ حقاً أنك مجنون، سترمينا في السجن هذه الليلة!

ـ ولم السجن؟ معجبون قادمون لتحيتها، وشراء لوحاتها!

صاحت الأم:

ـ شيرو توجه نحو البيت ودع الفرصة إلى يوم آخر، سأفكر بالموضوع!

ـ ما دمت أنت التي قررت العودة، من أجلك سأعود بكما إلى البيت!

عادوا من حيث أتوا، كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل عندما دخل نوزاد البيت وراء أمّه، سمعا صوت صرير إطارات المركبة وهي تنطلق في صمت الليل، توجه نوزاد إلى غرفة نومه، دون أن يغتسل أو يغير ملابسه، استلقى على الفراش وغرق في نوم سريع، كانت أمّه في الغرفة الأخرى، عادت بعد دقائق وهي تحمل كوب ماء وقرص دواء مسكن، وجدته يشخر، خشيت أن يستيقظ ويغرق من جديد في يقظة أخرى، وضعت كوب الماء وحبة الدواء جانباً، سحبت الملاءة برفق وغطته بعدما ألصقت ثغرها بجبينه، طبعت قبلتها الدائمة، تلك القبلة التي بدأت من يوم مولده، ما زالت تتواصل، رغم أنها وضعت في بالها، أن نهاية قبلاتها باتت قريبة، ما أن يتزوج، هناك من تستلم المهمة الإنسانية النبيلة منها، رغم الهاجس المقلق، أقنعت نفسها بأنها ستواصل قبلاتها، ستضع صورته معها في الفراش، شعرت أنها شبعت منه نظراً، كان يعزف سمفونية التعب عبر منخريه، عادت وطبعت قبلة أخرى، لم تكن تفعلها من قبل، دائماً كانت تكتفي بقبلة واحدة طويلة، استلقت على مقربة منه، على الأرض، سحبت ملاّءة من أسفل قدميه، تغطت وغطت في نوم سريع.

على قمّة أزمر

بدأت الناس تزحف إلى المكان الأثير، الجبل العنيد، هكذا يصفه التاريخ، الجبل الذي ظلّ مارداً بوجه عاديات الزمن وأحلام الطغاة، ناس المدينة تعشق التنزه والتجول في ربوع الطبيعة المتواجدة حولها، مدينة الأرق بالنسبة للتيّارات الغازية عبر القرون السحيقة، صارت عبر توالي الأزمان جوهرة نادرة، كل من يحكم البلاد يضعها نصب عينيه، يسوّرها بالعسكر والمجنزرات، يسد فضائها بالطائرات والمروحيات، يبدأ بقلع أشجار جبالها، عرائش العنب الأسود، أشجار البلوط الشتائي المغري، أشجار القسقوان وعلك الماء، ومن السما الطبيعي، مدينة القبج الذي ظلّ لا يرحل رغم وجود غرباء يلغمون الجبال بسرابيلهم الثقيلة ومدافعهم المزلزلة، هطلت أحزان، هطلت قنابل، لكنها ظلّت عنيدة، صامدة، تقاتل بمناخها القاسي، بصلابة ناسها، بسحر بناتها، بصوت الشمشال الذي راح يتغلغل إلى شعاب النفوس المريضة لتتعافى، زالت الكوابيس الخانقة عن المدينة، تبدلت الأوضاع السياسية، وصار التحرر صفة وهوية ناس وجدوا أنفسهم على مفترق طرق، بين ماض عسير يغادر وغدٍ قادم غامض الملامح، كثيرون فرحوا بعودة أبناءهم من ديار الغربة، وآخرون راحوا يبحثون من جديد عن أشياء نامت طويلاً، آباء وأبناء أخذتهم مركبات الحكومة ولم يعد أحد يعرف أين دفنوهم، أمّهات وأخوات وأخوة، لا أحد يعرف عنهم شيئاً،

أخذتهم مجاريف السياسة وديناصورات السلطة الراحلة وألقت بهم في متاهات السجون وقبور منسية أو دارسة، فقط أولئك الذين نجوا من المخالب الحديدية وجدوا أوقاتاً فائضة لديهم، كل مساء يزحفون إلى أماكن كانت فيما مضى أمكنة مرعبة، هناك تنقضي الأصائل، مركبات حديثة غزت الشوارع، كل أصيل تطوي ذلك العلو الملتوي، باتجاه مساحات مقتطعة ومهيأة للوقوف، شرائح ما تزال تعاني من وزر الحرمان بلا مركبات تسير وهي بالكاد تتنفس، تمشي وتقف وليس بوسعها أن تصل إلى النهاية، تكتفي بقدر معين من الصعود، هناك تجد مساحات كافية لزراعة سعادتها، ودحر ما تبقى عالقاً في الأذهان من أحزان.

في مقدمة المارد الجبلي غابات شجرية كثيفة، جموع شبابية تستعمرها، أنها لا تبالي بالحياة ومتطلباتها الصاعدة، لا تبالي بما يجري فيها من ملابسات وصراعات آخذة بالأتساع، تفرش موائد العبث، تنشر قناني مشروبات كحولية، مناقل داخنة، تتصاعد رائحة الشواء، لتنشر في المكان لذعات الجوع والرغبة لطعام يثير الكوامن ويغربل اللواعج، كشك صغير لبيع المشروبات الكحولية، يجلس رجل لا يبدو عليه الوقار، ربما أسكرته المشاهد والرائحة البغيضة المغتصبة للمكان، يربط قرداً ضئيلاً قرب صخرة، على ما يبدو دحرجتها الظروف ذات زمن واستقرت دكة حجرية تنفع للجلوس، ذلك القرد غدا محط جذب الصبيان وإجبار أهاليهم للشراء، وجد صاحب الكشك فرصة طيبة لبيع أشياء طفولية كاللعب والدمى إلى جانب مشروباته، الأمر الذي جعل اندفاع الصبيان نحو تلك

اللعب وراءه دافع، رغبة التمتع عن قرب برؤية قرد مربوط ينظر إلى أيدي الناس لترمي فتات المأكولات إليه، يتلقفها ويستمتع بما ينال.

مضى أكثر من أسبوعين على آخر ذهاب لـ نوزاد إلى ذلك المكان، كان شيرزاد يأخذه كل أصيل بحثاً عن الفنّانة، وربما تلبية لرغبة الأم لانتشاله من صدمته المتفاقمة، كان في غرفته يشعر بشيء من الهدوء رغم عدم عودة شهيته إلى تناول طعامه بانتظام، كما كان سابقاً، دخلت عليه أمه، أستقبلها بأدب. قالت:

ـ الناس خرجت وبقيت بلا أنيسة هذا الأصيل!

ـ إلى أين تريدين أن نخرج!

ـ لم أزر أزمر من مدة!

ـ ولكن المشي سيرهقك!

ـ أريد أن أجرِّب ساقي، كنّا نركض صعوداً قبل سنوات!

ـ حسناً، سأتصل بـ أبو المشاكل!

قام وتناول هاتفه النقّال، جاءه الصوت واهناً:

ـ ها.. يبدو أنك تريد رؤية هه وليرتك أم فنانتك!

ـ ليس هذا وقت المزاح، تريد أمّي أن تشم هواء نقياً!

ـ من أجل أمك فقط سآتي يا كئيب، تذكر هذا الكلام!

جلس.. وضعت أمه كفها على كتفه. قالت:

ـ ماذا يقول؟

ـ من أجلك سيأتي، تصوري كم هو محرّك آلام!

ـ وماذا قال أيضاً؟

ـ نطق بملح جرحي!

ـ لا تعيره أذناً صاغية، سأجد لك من تنسيك ماضيك، تلك هي سنّة الحياة!

***

طرق الباب بعنف، تلك هي ألاعيب شيرزاد، أنه لا يريد أن يتحضر، يرفض الضغط على أزرار أجراس المنازل، هرع إليه، كان متأنقاً إلى أبعد حد. صاح:

ـ من أجل عمّتي فقط سأنسيك أسمك!

ـ ستبقى متهوراً، ألم أقل لك لا تطرق الباب هكذا!

صارا في الداخل، قامت الأم. قالت:

ـ كيف حالك يا شيرو؟

ـ كيف حالي؟ يريدني أن أموت مصعوقاً!

ضحكت الأم. قال نوزاد:

ـ لا يترك عادة المتخلفين!

أجابت الأم:

ـ أتريد منه تكرار فعلته السابقة؟

قال شيرو:

ـ مذ صعقت وألقيت على الأرض، أقسمت أن لا أضغط زر جرس!

ـ لو امتلكت ذرّة وعي لما ضغطت الزر في يوم ماطر!

ـ سواء كان الجو ماطراً أم صحواً، سأقرع الأبواب بقبضتي!

ـ هيّا لنخرج من هذا الجحيم! قالت الأم.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة وخمس وثلاثين دقيقة من عصر يوم الخميس، من الشهر نيسان، عندما وصلوا بداية الشارع المفضي إلى قمّة أزمر، اصطدموا بعسر في سير المركبات. قالت الأم:

ـ العالم أين وشبابنا أين!

قال شيرو:

ـ تلك هي الثقافة الجديدة لجيل قضى عمره في المنافي!

قال نوزاد:

ـ كان يجب منع هذه المحرمات من تلويث ربوع مدينتنا!

أجاب شيرزاد:

ـ العالم الغربي يعطينا حريّة مزيفة مقابل المشروب!

قالت الأم:

ـ حريتنا نصنعها كما نرغب، ما دخلهم بذلك؟

قال شيرزاد:

ـ لن يحرروا بلداً من مخالب جلاّده، ما لم تلبى مطالبهم!

ـ وما هي مطالبهم؟ قالت أم نوزاد.

ـ السماح لشرب المسكرات والرقص في الشارع! أجاب شيرزاد.

ـ نحن نرقص في الهواء الطلق. أجابت الأم.

ـ ليس كما تعنين يا أمّي! قال نوزاد.

ـ وماذا يريدون؟ صاحت الأم.

ـ أن يمارس الإنسان حريته وفق مزاجه! أجاب شيرزاد.

قالت الأم:

ـ أن يحيلوا الدنيا خراباً!

أجاب نوزاد:

ـ فهمت المقصد!

أجاب شيرو:

ـ أقطعِ أعناقهم ولا تقطعِ مشروبهم، هذه فلسفتهم في الدنيا!

ـ ينبغي حرقهم أحياء! كان نوزاد يمسك أنفه بقرّاصة أنامله.

ـ ولا تنسى، على كل شعب أن يحذوا حذو الغرب كي ينال حريته كاملـة. قال شيرزاد.

ـ أرجوك لا تزجنا في معمعان السياسة. أجاب نوزاد.

قالت الأم:

ـ كان عليهم أن لا يوسّخوا هذا المكان الجميل، العتب على الحكومة، هذا الجبل رمز السليمانية!

ـ ماذا تعمل، أنها تلاوي الزمن لإعادة الأمور إلى ما كانت عليه، أنها تشم رائحة مؤامرات تقام سراً لمنعها من تحقيق حلمنا الكبير. أجاب شيرزاد.

قال نوزاد:

ـ الطيبة الفائضة عندنا سبباً لبلائنا المتواصل!

أجابت الأم:

ـ ألم يعيشوا هنا بيننا؟ ألم نؤويهم؟

ـ السياسة لعبة الذئاب والحملان يا أمّي! أجابها نوزاد.

ـ الدنيا مصالح والسياسة مستنقع الفساد في الأرض يا عمّة! قال شيرزاد.

ـ مهما تكون مشاغل الحكومة لابد أن لا تجهل حياة ناسها، الحكومة بيدها مقاليد الأمور، بإمكانها تطهير الأماكن الشعبية من هذا الوباء، قبل أن تفكر بمصلحتهم العليا! قالت أم نوزاد.

ـ الحكومة تروج سراً للمشروبات الكحولية، لأنها وسيلة ممتازة لتخدير الناس وقتل الروح النبيلة في المجتمعات، بالمشروب تتقدم بلدان العالم الثالث، هذا موجز فكرهم الحضاري! قال شيرزاد.

صارت المركبة تبعد عن الكشك بمائة متر، تفاجئوا بجمهرة ناس لا تتحرك، كانت مجموعة مركبات واقفة تزعق، وأصوات شبابية من وراء

نوافذها تنادي، أخرج شيرزاد رأسه وتحاور مع صبي يبيع المرطبات، كان نوزاد يتنقل ببصره بين الناس، وكانت الأم تمسح وجهها بمنديل.

قال الصبي:

ـ القرد سرق لعبة فتاة!

صاح شيرزاد:

ـ قل لهم سأشتري لها واحدة، فقط يتركوا لنا الطريق!

قال الصبي الذي صار رأسه بموازاة النافذة:

ـ ليست اللعبة فقط بل سرق موبايل سكران!

ضحك شيرو وضحكت الأم. قال نوزاد:

ـ لا بد أنهما تحارشا به!

قال الصبي:

ـ كلا.. القرد فلت من صاحب الكشك بلّه مشروب وهجم على السكران أولاً، ظلّ السكران يركض ويسقط وراءه، صعد القرد على شجرة، راح السكران يرميه بالقناني، لكن القرد مسك القناني كلّها، ظلّ السكران يبحث عن شيء يرميه إلى القرد، كانت هناك طفلة واقفة تضحك وبيدها لعبتها، أنتزع السكران اللعبة منها ورماها، مسك القرد اللعبة أيضاً!

تعالت ضحكة ثلاثية متداخلة، الصبي حائراً ظلّ يتنقل بنظره في وجوههم. قالت له الأم:

ـ كان يجب أن يمسكه واحد ويرميه إلى القرد!

قال الصيي:

ـ يرمي من يا خالّة؟

ضرب شيرزاد وجنة الصيي بباطن كفه برفق صائحاً:

ـ تقصد أن يرمي واحداً ذلك السكران إلى القرد!

ضحك الصيي وقال:

ـ إذا تمتلك قوة أنزل وأرميه، سيصفق لك الناس!

وجم شيرو. قال نوزاد:

ـ أما تكف التحاور معه، دعه يبيع مرطباته قبل أن تموع!

قالت الأم للصيي:

ـ أذهب يا ولدي لشغلك!

قال الصيي قبل أن يركض لـ شيرزاد:

ـ أنصحك" لا تنزل من سيارتك، ربما سيرميك السكران إلى القرد!

كاد شيرزاد أن ينزل إلى الصيي الذي راح يجري حتى توارى بين الناس، همس نوزاد:

ـ حظك مع البنات حلو يا ولد، ومع الجنس الخشن مر، عقدتك على ما أعتقد صبيان المرطبات، أرجو أن لا تنكر بأنك كنت تبيع المرطبات في طفولتك!

زفر شيرزاد. صاح:

ـ أولاد بلا أهل، وهل تعتقد أنه من نسل والده؟!

تلقى صفعة على ظهره من الأم، أنتبه لنفسه، أستدرك قائلاً:

ـ أرجو المعذرة يا عمّة، لقد فوّر دمّي!

قالت:

ـ طبيعتك ستدخلك في مشاكل أنت في غنا عنها!

ـ ليس بوسعي مسك لساني، تلك هي علتّي!

بدأت الجموع تمشي، راحت المركبات تطلق زعيق الفرج، صارت المركبة أمام الكشك الذي انجلت عنه الحشود، أوقف شيرزاد المركبة، أنزل زجاجة النافذة. صاح:

ـ أربط قردك برقبتك يا بلّة مشروب!

أنطلق بسرعة، بينما كان صاحب الكشك يشهر زجاجة فارغة بيده، وهو يطلق شتائمه، قال نوزاد:

ـ فيك دودة الحرشة، سيقطع علينا طريق عودتنا، ويهشم زجاج مركبتك!

ـ لا تظن ذلك، أنه سكران على طول الخط! أجابه شيرزاد.

وصلوا إلى مكان مرتفع، تقدمت المركبة باتجاه حافة الهاوية، مسكت الأم كتف شيرزاد. صاحت:

ـ هل جننت!

ضاحكاً أوقف المركبة، فتح الباب وهبط، بسط يديه وأشار، كما يشير السائق لرئيسه أوان الترجل، ظلّت الأم واجمة، لا تعرف ما هي الخطوة التالية، فتح شيرزاد باب المركبة الخلفية. قال وهو ينحني كما ينحني سائق الملك أمام سعادته:

ـ هيّا يا عمّة، أنزلي لتري المكان الذي كان يمكن أن نلملم فيه عظام الباش مهندس!

نزلت الأم، لا تعرف ما الذي هذا به الولد الشقي، شعرت بضيق في سحب الهواء، نزل نوزاد هو الآخر، صار لصق أمّه، رفع كفه اليمين ووضعه على كتف أمّه. قالت الأم:

ـ ماذا عنيت بكلامك؟

ـ يوم رغب أن يغدو أسطورة مدينتنا، كان واقفاً هنا، كاد أن يطير لولا وجودي في اللحظة المناسبة، أنا نادم طبعاً، كان يجب أن أرجع بأشلائه، لنسيناه إلى الأبد!

ألتفت نوزاد إليه. قال:

ـ ليت كنت أعرف سبب تواجدك هنا في تلك اللحظة، على الرغم من يقيني أنك كنت مع فتاة!

تقدم شيرزاد منه وهمس في إذنه:

ـ كنت مع واحدة فعلاً، كنّا في جو من الأنس!

ابتسمت الأم وهي تقرأ بعين خيالها ما همس به الولد الشقي، سحبت شهيقاً وصوتت زفيرها، تقدم شيرو منها، أشار إلى نقطة غامضة. أردف:

ـ أراد أن يطير من هنا ويحط هناااااك!

قالت الأم:

ـ لن أنسى لك معروفك يا ولد!

هز رأسه كمن نال تقديراً أو جائزة معنوية، تقدم من نوزاد، كان سارحاً يبحث عن تلك النقطة التي نساها، همس شيرزاد في أذنه ثانية:

ـ كنّا في يوم عسلي!

ألتفت إليه نوزاد ونحت غضبه في عينيه. صاح:

ـ قل يوم بصلي يا أخي!

أطلق شيرزاد ضحكته، صعد إلى المركبة وأشارا لهما، صعدا معاً وانطلقا، وصلوا فسحة أخرى، فعل شيرزاد مثلما فعل في الفسحة السابقة. قال:

ـ علينا أن نجلس هنا!

قالت الأم:

ـ مكان حسن!

قال نوزاد:

ـ ملعون لم اخترت هذا المكان؟

ـ لأنك هنا عطشت!

قالت الأم:

ـ يا ويلي منكما، تأتيان سراً ولا تعلماني.

تقدم منها شيرزاد. قال:

ـ هذا المكان مقدس، كون الفنّانة تتخذه مكان عمل أو ما يسمونه مشغل على الهواء الطلق!

ـ لما لم تأتي اليوم؟ قالت الأم.

ـ ربما وحيها نائم، أو ما يسمونها ربّة الإلهام لم تهبط عليها!

ـ لا تجدف يا شقي! صاحت الأم.

ـ لا دخل لي بالكلمة، الفنانون والأدباء يقولون هذا الكلام الغريب! أجاب شيرزاد.

ظلّ نوزاد يغسل المدينة النائية والتي راحت مثل أكوام من القمامات متناثرة وسط دخان كثيف يعلو من جهة اليمين، مغطياً الفضاء بشكل شاحب وخانق، تقدم الولد الشقي وباغته:

ـ ها.. يبدو أنك أضعت بيتها!

أنتبه لما قال. صاح فيه:

ـ اتفقنا على أنها أصبحت خارج اللعبة!

ـ هذا ما أريد الوصول إليه، أشهدي يا عمّة أنّه نطق، أخيراً نطق بالحق!

راح يتقافز في الهواء والأم تضحك، حتى دمعت عيناها. صاحت:

ـ ليتك أخاً له، ليتك أباً ثانياً لي!

سقط شيرزاد وضحك نوزاد، قام ونفض الغبار من على هندامه، كانت الأم قد فرشت البسط ووزعت ما أعدّت من طعام بسيط وعبوات المياه المعدنية، جلسوا وتناولوا طعامهم، لقد مر الوقت سريعاً، تحاوروا وضحكوا كثيراً، في تلك اللحظة تناثر صوت صيي:

ـ ها.. أبو القاط الأفندي، تعال لنرميك للقرد!

لحظة استدارت الوجوه معاً، كان صيي المرطبات في مركبة حوضيه منطلقة باتجاه الأسفل، قال نوزاد:

ـ سيطاردك حتى في نومك!

ـ أين يذهب سأصطاده! أقسم أنني سأربطه إلى تلك الشجرة، وأحرر القرد عليه!

ساد الصمت لدقائق، مع بداية الغروب بدأت المركبات تعود والناس تنشد منازلها، صعدوا وانحدرت المركبة هابطة، لا رغبة لديهم في الكلام، وصلوا آخر مساحة راحة، توقفت المركبة، نزل شيرزاد. صاح نوزاد:

ـ ها.. أرجو أن لا تتركنا هنا!

تقدم شيرزاد من بوابة المحرك، رفعها وراح يداعب من غير علم الموجودات الساخنة، هبط نوزاد ووقف بجانبه. قال:

ـ توقفت، لم يحدث معي هذا من قبل!

توقفت مركبة، ادى صوت:

ـ هل من عون!

أشار إليه نوزاد، ترجل رجل بدا من ملامحه أنّه سائق أجرة، سلّم على الثلاثة وراح يفحص المركبة. قال:

ـ ليس هناك عطل، نفد مخزون الوقود في مركبتك!

ذهب إلى مركبته وعاد يحمل عبوة بنزين، تناول شيرزاد العبوة شاكراً، أدارها إلى الخزّان، بينما الرجل السائق عاد إلى مركبته وأنطلق. قال نوزاد وهو ينقر رأس صاحبه:

ـ ها..أبو العقل،تقول أنا خبير بالمركبات الحديثة!

ـ دعني أنا متعب، أشعر بدوّار مفاجئ يا نوز!

ـ لا دوّار ولا تعب، أعترف أنك لا تفتهم في ميكانيك المركبات!

ـ من يمشي معك يفقد شيئاً فشيئاً عقله!

في تلك اللحظة توقفت مركبة حديثة، تناثر صوت جميل:

ـ لدينا ماء بارد أرجو أن تكونا عطشى!

سقطت العبوة من يد شيرزاد وأنتبه نوزاد، كانت الفنّانة تهبط من المركبة وتتقدم إليهم.

نزلت الأم، تقدمت منهم. قال شيرزاد:

ـ حظنا حلو هذا المساء!

ـ حظكما دائماً على ما يرام! أجابت الفنّانة.

تقدم شيرو من الأم. قال:

ـ أقدم لكِ فنّانة المدينة!

ـ آه لكم وددت أن أراك! أجابت الأم.

تعارفتا وتبادلتا الكلام الحلو، كان نوزاد واجماً لا يعرف كيف يلملم نفسه ويهيمن على مشاعره، بينما الأم تتأمل وجه فتاة صبوحة، تلبس بنطلون وشعرها يتحرر بترتيب فائض عن اللزوم. قالت له:

ـ وددت أن أزورك!

ـ وما المانع؟ أم ترى الباش مهندس يعدم رغبتك!

ـ بل هو راغب أيضاً، لكنه يمر بتعب نفسي!

ـ الفن علاجه، الفن طبيب مجاني لأصحاب المتاعب النفسية!

تدخل شيرو:

ـ مهندسنا عاشق للفن والفنّاناااات!

ضحكت الفنّانة، كان نوزاد يرمق صاحبه بنظرة تحمل في طيّاتها كميّة هائلة من الألم، لكم تمنى أن يمتلك بعض جرأته، وقليل من مرحه. قالت الفنّانة لـ شيرزاد:

ـ لا تكن قاسياً عليه!

ـ وكيف راقبتِ ذلك؟ أجاب شيرزاد.

ـ راقبت قسوتك يوم العطش ويوم المعرض!

ـ أعتذر من أجلك ومن أجل عمّتي!

ـ وهو ألا يستحق الاعتذار؟

ـ سأفكر في هذا الموضوع! رد شيرزاد.

تدخل نوزاد:

ـ ومتى كنت تمتلك عقلاً لتفكر!

ضحكت الفنّانة وصفقت. صاحت:

ـ أفلحت يا عزيزي في رد الكيد لنحره، على الرغم من يقيني أن نحره يتحمل سهام الدنيا!

بدأت ملامح الفضاء تتشح بلون رمادي، ألقت الفنّانة نظرة إلى ساعة معصمها. تكلمت الأم:

ـ دعينا نراك!

ـ بعد غد لدي محاضرة في الفن والتراث في قاعة الفن الحديث!

صاح شيرزاد:

ـ أنا أوّل مدعو!

ـ لن تدخل ما لم تصطحب معك الباش مهندس وعمّتي!

ـ موافق يا حضرة الجمال!

تراجعت ودخلت المركبة. قالت:

ـ لا تجلبوا معكم الماء، ماءكم عليّ يا شباب!

صعدوا إلى المركبة وعادوا من حيث جاءوا.

غيبوبة شيرزاد

مر شهر قاسٍ على ذلك الأصيل، شهر ثقيل، كانت أيامه تتململ كسلحفاة هرمة، كانت الأم تحاول أن تقنع أبنها كي يترك سربالله الذي يرتديه، سربال الحزن والتمرد عن الحياة، تتوسل طويلاً وتصمت كثيراً، رغم بلاغة حزنه لم تتورع من الإفاضة وتكثيف جهودها كي تدمجه مع ضرورة لابد منها، ضرورة الخروج من شرنقة التمرد ومخاصمة العالم من حوله، عليه أن يصالح الحياة كما هي، عليه أن يخرج من عزلته، أن ينسلخ من رداءه القديم، مهما كانت ثقافة المرأة، تبقى الحياة حلمها ومدرستها، فهي تدرك بأنوثتها أن الحياة سفينة لن تتوقف، تمخر عباب محيط بلا قوانين، بلا فنارات، الحياة في مفهوم البعض مرجل ناري كبير وقوده البشر، وعند البعض سباق طويل بدأ لا أحد يعرف نهايته، من يتوقف يكتشف نفسه جسراً تدوسه أقدام الصاعدين والعابرين مصدّات الحياة.

حاولت الأم أن تقنعه وتثنيه من كوابيسه الوهمية، شرحت له حزن النساء فاقدات فلذات أكبادهن في كل المناسبات المظلمة التي لم تتوقف في ربوع الشمال، رغم مصابهن ترجلن من برج الكآبة والبكاء ليندمجن في فرن الزمن الذي ظلّ يصهر الحديد ويأكل الشباب، تلك هي الشجاعة النادرة والمقاومة الصريحة لمخالب الموت وكل إشكالات الظلم، النساء

الثاكلات تكيفن مع الألم، أصبحن صامدات بوجه المتغيرات الحياتية، كجزء فطري يوحد الإنسان بتاريخه ويربط مصيره بمصير الآخرين من حوله، حاولت أن تخرجه من سباته، أن تجعله يفكر بواحدة تناسبه، كلّما دغدغت خياله بتوسلاتها الأمومية، كانت الفنّانة تطل لتهيمن على مسرح رغبتها.

ظل الولد لا يبارح المنزل إلاّ لماماً، عندما ترسله أمّه ليتسوّق، أو الخروج لجلب حاجة ملحة، يعود ويجلس في غرفته، شيء واحد تبدل فيه، بدا الآن يستغرق أكثر في نوم عميق، لا يحصل ذلك إلاّ بعد تحديق متواصل في الفراغ الساكن في غرفته، أو التمعن التام في عمق اللوحة المشنوقة على الجدار أمامه، حاولت الأم أن تتصل بـ شيرزاد، وجدت هاتفه مقفلاً أو خارج نطاق الخدمة، كما يجيء الصوت النسائي الجميل. قالت له:

ـ أين هو صاحبك الشقي؟

ـ لا علم لي!

ـ لم لا تذهب لتسأل عنه!

ـ طرأت الفكرة في بالي ولكن.. (قاطعته).

ـ أذهب وأسأل عنه، ألم يسندك في محنتك!

هز رأسه، كانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف عصراً، قام نوزاد وذهب إلى الغرفة الأخرى، عاد بعد ربع ساعة مرتدياً ملابسه. قال:

ـ ربما حشر نفسه في مشكلة كبيرة، إن لم يكن قد سافر إلى الخارج!

ـ أذهب وتحرّى عنّه!

خرج الولد، وخرجت هي إلى الزقاق، وجدت جارتها أم سـه ركـه وت جالسة، تقدمت منها وجلست قبالتها. قالت لها:

ـ إلى أين يذهب في هذا الوقت؟

ـ يزور صديقه!

ـ آه.. تذكرت أين هو صاحب السيّارة الحمراء؟

ـ من مدّة وهو غائب عنّا!

ـ لكم يعجبني مرحه وشجاعته!

ـ ولد وسيم وشهم!

ـ أين يسكن؟

ـ في شارع الأوقاف! لم تسألين عنه؟

ـ مجرد سؤال!

دخلت الزقاق سيّارة بيضاء، توقفت أمام المرأتين، هبط شاب مهندم وسأل عن نوزاد:

قامت الأم وأجابته:

ـ من أنت يا بني؟

ـ أنا زميله في الكليّة!

ـ لم أرك من قبل!

ـ لو ألقيت نظرة إلى صورة التخرج، سترينني واقفاً عن شماله، كنت أهمس في أذنه لحظة التقاط الصورة بضع كلمات خاصة!

ـ وماذا تريد منه؟

ـ أريد أن أبشره!

ـ أنا أمّه، ولم لا تبشرني أنا!

ـ أخبريه أن قوائم التعيينات ظهرت، وأسماءنا موجودة ضمن قوائم الملاحق، بعد الغد يجب أن يراجع نقّابة المهندسين، معه شهادة التخرج، وست صوّر حديثة والمستمسكات الروتينية!

ـ لم لا تنتظره؟

ـ لدي عمل!

ـ سوف يأتي!

ـ لا وقت لدي يا عمّة!

ـ لم لا تهاتفه!

ـ لا املك رقم هاتفه!

ـ حسناً من أقول له!

ـ محمود، قولي له محمود خليل، أو قولي له محمود بستاني كما كان يحلو له مناداتي!

صعد الولد إلى مركبته وأنطلق، ظلّت المرأة واقفة، شيء كبير بدا ينمو فيها، انتبهت لكلام المرأة الجالسة:

ـ ألم أقل لك الفرص كثيرة والشغل كثير!

جلست ثانية. زفرت بحرقة:

ـ العمل وحده يخرجه من كآبته!

ـ سيعمل ويجد زوجة مناسبة له وتفرحين به!

ـ ليت ذلك جد قريب، ليت ذلك غداً!

ظهر الولد من بداية الزقاق، قامت أمّه لتستقبله، قالت المرأة الجالسة:

ـ باغتيه بالفرح كي ينسلخ من جلد الكآبة!

ـ سأفعل ذلك!

تقدم وسلّم على المرأتين، بدا وجهه مكفهراً. قالت الأم:

ـ جاء محمود بستاني، محمود خليل!

لم تحرك فيه ساكناً، واصل سيره نحو المنزل. قالت المرأة الجالسة:

ـ غريب أمر أبنك!

ـ حيّرني يا أختِ!

قامت وسارت وراءه دون أن تودع المرأة الجالسة، دخلت غرفته، وجدته منطرحاً على السرير بملابسه، جلست قربه، وضعت كفها اليمين على جبينه. قالت:

ـ ما الذي جرى؟ ماذا بك؟

ـ شيرو!

ـ شيرو؟

ـ نعم شيرو!

ـ ماذا جرى له؟

ـ يرقد في المشفى منذ ذلك الأصيل!

ـ أحقاً أنك لا تمزح!

ـ نعم يا أمّي، عمل حادثاً وهو فاقد الوعي!

ـ الم أقل تحرّى عنه!

ـ هو الآن يعيش في شبه غيبوبة!

ـ لا يصح تركه، زيارته واجبة!

ـ أمّه وأخته قالتا لي ذلك!

ـ عصر يوم الغد سنزوره، آه.. كدت أنسى الخبر المفرح، جاء محمود بستاني!

قفز من فراشه كملسوع. صاح:

ـ أحقاً ما تقولين!

ـ نعم.. قال أسماءنا ظهرت في قوائم التعينات!

قبّل يدي أمه هاتفاً:

ـ وعداً منّي، سأعطيك الراتب الأول!

شيرزاد يسترد وعيه

طلب الطبيب الرفق والهدوء وعدم إحراجه، أو إرهاقه بالكلام، ظلّ نوزاد وأمّه واجمين للحظات عند عتبة باب الغرفة، عالج نوزاد أكرة الباب برفق وتردد، مدّ رأسه، وجده ممدداً، خالداً إلى هدوء وتمعن، كان يتسربل في بياض تام، تدب صفرة خفيفة في ملامحه، فتح الباب وتقدم نحوه، بينما كانت الأم تحاول أن تخنق الدموع المنبجسة في موقيها، وصل نوزاد إلى سريره، قرّب الوردة الحمراء التي قطعها من نبتة حديقة المنزل، فتح شيرزاد عينيه، التقت الوجوه، أراد أن ينهض، مسكه نوزاد وابقاه طريح الفراش.

تمتمت الأم:

ـ لما لم تبعث خبراً إلينا؟

ـ لم أرغب أشغالكم معي!

قال نوزاد:

ـ كان يجب أن تخبرنا؟

ـ البارحة ليلاً عدت من غيبوبتي!

ـ كيف حالك يا شيرو؟ قالت الأم.

ـ أشعر بتحسن طبيعي، لذلك سمحوا لكم بالزيارة!

قال نوزاد:

ـ متى تخرج كي ننحر لك ديكاً؟!

ـ يا حضرة الباش مهندس. دييييك!

ـ فقير لا أملك شروى نقير! صاح نوزاد.

قالت الأم:

ـ هيّا أخرج لنحتفل بعرسك!

ـ عرسي أم عرس حضرة الباش مهندس؟! قال شيرزاد.

ـ لا فرق عرسه عرسك! ردته الأم.

ـ قل لي يا أبو المشاكل، كيف حصل لك ما حصل؟ قال نوزاد.

ـ ذلك الملعون كان السبب!

قالت الأم:

ـ لا أحد غير إبليس ملعون!

ـ الصبي الذي أغضبني على قمّة أزمر، لحظة رأيته فقدت صوابي، فجأة غامت الدنيا في عيني!

ـ وما دخل الصبي بمصيبتك؟ قالت الأم.

ـ هو من تسبب في الحادثة! أجابها شيرزاد.

قال نوزاد:

ـ ألم أقل سيطاردك حتى في منامك!

ـ دعونا مما حصل، ما هو آخر أخبار الفنّانة، ما هو آخر أخبارك معها؟

قالت الأم:

ـ أرغب الذهاب إليها!

ـ ما المانع في ذلك يا عمّة!

ـ هو.. دائماً يرجئ الموضوع! قالت الأم.

ـ نوز الكئيب، لا يعرف أين مصلحته!

قالت الأم:

ـ وحدك من يقنعه على ذلك!

ـ بعد غد سأخرج، هذا ما قاله الطبيب لوالدتي!

تخللت الزيارة فترات صمت، كانت الأم تعد بعض ما جلبت من معجنات وعلب العصير، تناول قليلاً مما قدمت له، قبل أن تدخل ممرضة وسيمة. قالت:

ـ انتهت الزيارة يا جماعة!

أجابها شيرزاد:

ـ كولبهار هذا هم الباش المهندس الذي حكيت لك عنه!

التقت النظرات، وساد صمت بليغ. فاهت:

ـ أنت تمزح يا ولد!

ـ لم أمزح، أسأليه إن كنت في شك مما أقول! أجابها شيرزاد.

نقلت نظراتها إلى المرأة الجالسة، بحثاً عن باب نجاة، هزت الأم رأسها. قالت:

ـ لا أعرف ما الذي قاله لك!

ـ قال أن الباش مهندس ربط جنحين من ريش على نفسه وأراد ان يحلق فوق السليمانية!

أجاب نوزاد:

ـ حتى لو كُسرت رقبتك لا تترك المشاكل!

ضحكت الممرضة. قالت:

ـ شيرزاد أسعدنا مذ عاد من غيبوبته!

أجاب نوزاد:

ـ ليته كان غائباً، في أقل تقدير يرتحن بنات الجيران منه!

قالت الممرضة:

ـ وكيف ترضى الفتاة إذا لم تتعرض لحفنة حرشات كل يوم؟

أجابت الأم:

ـ يبدو أنه أزعجكن طيلة هذا الشهر!

ـ ليت ذلك قد حصل، غيبوبته كانت طويلة! قالت الممرضة.

نظرت الممرضة إلى الساعة الجدارية، حرّكت رأسها، عرفوا إنّ الموعد قد أنتهى، خرجوا تاركينه في سريره، كان يبتسم لحظة خرجوا، وكانت الممرضة الجميلة واقفة عند رأسه، لم ترافقهم، ظلّت تنظر إليهم بود وأسئلة تكاد أن تندلق من عينيها المستغربتين قبل شفتيها المنفرجتين.

***

همست الأم:

ـ هل لاحظت شيئاً؟

ـ شيئاً؟

ـ ألم تنتبه لحالة كانت ظاهرة في الغرفة!

ـ لا أعرف ما تعنين يا أم!

ـ شيرو والممرضة الجميلة!

ـ لم أشاهد ما شاهدتيه!

ـ كانا منسجمين!

ـ ربما هي المهنة التي تفرض الاهتمام الزائد، والعناية الخاصة بالمرضى!

ـ ولكن..! قاطعها.

ـ بلا لكن يا مام، شيرو جذّاب يمتلك سحراً مؤثراً على الفتيات!

ـ قلبي يقول أنّ شيئاً غير عادي حصل بين الأثنين!

كانت المركبة تشق أحشاء الشوارع الغاصة بالمركبات، كانا يجلسان معاً في الحوض الخلفي.

ـ يا مام! لنأخذ عشاءنا معنا!

ـ فكرة جيدة، ليس لدي رغبة في عمل العشاء في هذا الوقت المتأخر!

قال نوزاد للسائق:

ـ توقف عند أقرب مطعم!

أجاب السائق:

ـ المطاعم هنا غالية!

ـ لا يهم ذلك!

وقفت المركبة عند الرصيف أمام مطعم كبير ضاج بالزبائن، ترجل نوزاد متجهاً صوب المطعم، نزل السائق وراح يفحص إطارات مركبته، بينما ظلّت الأم جالسة، لم ترغب في الترجل، كانت تنظر إلى أبنها من خلال الزجاج، رأته يقف عند رجل يجلس وراء طاولة يعد النقود، في تلك

اللحظة توقفت مركبة بيضاء، هبطت فتاة ترتدي بنطلون أبيض، على رأسها قبّعة، لم تستوضح ملامحها رغم وجود أنوار المصابيح المتداخلة، كانت شاردة الفكر تنظر من غير تركيز، فقط ترتسم الهياكل البشرية أمامها، تلك الفتاة مشت باتجاه المطعم، وقفت قرب نوزاد، شعرت بريح مباغتة تقتحم أغوارها، تحررت مصحوبة بآهة، تمنت في تلك اللحظة، أن يكون المشهد حقيقة، ابنها وعروسته، انتبهت لمشهد حوار بين الاثنين، دمعت عيناها، مسحت دموعها بكم عباءتها، كانا يظهران ويختفيان داخل هالات الدخان المتدفق من منقلة الشواء أمام المطعم، وجدتهما حقاً يتحاوران، ورد إلى ذهنها فكرة بدت معقولة بالنسبة لها، ربما زميلة من زميلات الدراسة، ملابسها تشير على أنها فتاة دارسة غير عادية، أنفض الاشتباك بين الاثنين، سارا معاً ومع كل خطوة بدأ قلبها ينتفض، بحثت عن زر فتح الباب، رغبت أن تترجل وتتعرف على الملاك الماشي مع نوزاد، مدّت كلتا يديها من وراء النافذة، صاحت السائق الواقف عند الرصيف:

ـ تعال وأفتح لي الباب!

لم يسمع السائق ما فاهت به الأم، كانت الأضواء المارقة والمتشابكة للمركبات المتسارعة تمنع رؤية الأشياء بوضوح، حاجبة الأصوات الواهنة، دنا نوزاد من المركبة، بينما الفتاة ذهبت لمركبتها، دلف وجلس قربها، وجدته على غير عادته، شيء من الفرح يرتسم على قسماته، تكاد تسمع ضربات غير عادية لقلبه، تبدل واضح للهجته، بدأ السائق يقود المركبة من جديد. همست:

ـ ماذا رأيت؟

ـ خير يا مام!

ـ هل كانت زميلة دراسة؟

ـ لا.. لا يا مام!

ـ كنتما تتحاوران كأنكما تعرفان بعضكما بعضا!

ـ كانت هي يا مام!

ـ من هي يا ولد؟

ـ التي في بالك!

ـ من في بالي يا ترى؟

ـ الفنّانة!

ـ الـ.. فـ.. نـّ.. ا.. ا.. ـنة.

كانت المركبة قد توقفت أمام الباب، كانت الساعة الثامنة وخمس دقائق من مساء يوم الأثنين الأوّل، من الشهر أيلول، لحظة هبطا ودلفا إلى المنزل.

ـ لما لم تناديني.

ـ خشيت أن تتفوهي بما في بالك يا مام!

ـ وما الذي تظنّه في بالي يا ولد؟

ـ أنت تخططين لشيء مستحيل!

ـ وما المستحيل يا ولد؟

ـ هي في العلالي يا مام!

ـ وأنت أيضاً ستغدو في العلالي!

ـ أنا في الحفر، ما زلت في مستنقع الحياة!

كانت تجلس أمامه، وهما يتناولان العشاء، طاولة مستديرة، طاولة بلاستك، حولها أربعة كراسٍ من البلاستك أيضاً، كانت رائحة الكباب تثير شهيتيهما، توقفت أسنانها عن المضغ. قالت:

ـ لا تقل هذا الكلام، أنت مهندس، ينتظرك مستقبل كبير!

ـ يا مام! أنت تدرين بوضعي، تريدينني أن أغطس في حياة عسيرة، أنت تعرفين جيداً أنني بحاجة إلى راحة، بحاجة إلى عزلة، الذي يستوطنني أكبر مما تظنين!

ـ ولم العزلة يا أبني؟ بإمكان امرأة أن تخرجك من عالمك القاتم، جرّب وسوف تشكرني على ما اقول!

ـ دعيني يا مام، لنرى هذه الفقاعة الجديدة، فقاعة التعينات.

ـ محمود أكد على ضرورة حضورك!

ـ مثل المرّات السابقة فقاعة، فقاعة يا مام!

ـ وهل يعقل انهم يكذبون عليكم؟

ـ الكذب هوية الحاضر يا مام، الإنسان الكاذب هو من ينال العلى والمناصب في يومنا هذا!

مدت يدها إلى عبوة السفن آب وصبّت في كأسين، تناول واحدة وراح يرتشف بهدوء. قالت:

ـ أذهب إلى نقّابة المهندسين غداً!

ـ سأذهب كما كنت أذهب في المرات السابقة إلى نقّابة اليائسين!

ـ أنا على يقين أنهم لا يكذبون هذه المرة!

ـ آه.. نسيت، يا مام رفضت البنت أن أدفع قيمة عشاءنا!

ـ ولم وافقت على ذلك؟

ـ قالت أنها باعت العديد من لوحاتها لجهة خارجية، أنها فرحة، تريدنا أن نشاركها الفرح ولو من داخل منزلنا!

ـ يا لها من فتاة ملأت كياني!

ـ منعتني من دفع حساب العشاء، قالت: عندما تستلم أوّل راتب عندها سأسمح لك بدفع عشائي لو ألتقينا مرة أخرى!

ـ بي رغبة ان أزورها في البيت!

ـ لا تفعلي ذلك يا مام!

ـ ولم؟

ـ أنها فنّانة مشاغلها كثيرة!

ـ دائماً تضع في دربي عراقيل!

في تلك اللحظة رنّ الجوّال، رفعه، كان شيرزاد، قام من المائدة، وجلس على أريكة أسفل الساعة الجدارية. صاح:

ـ وصلنا بسلام.

ـ .....

ـ كلا.. ليس لدي عمل!

ـ .....

ـ سلام!

دنا من أمّه، كانت تنظر إليه. قالت:

ـ ماذا وراءه؟

ـ يريدنا في بيتهم، عصر يوم خروجه، أمّه ستذبح خروفاً!

أنهى عشاءه، قام وتوجه إلى غرفة النوم، انهمكت الأم بتنظيف المائدة، بعد مرور سبع عشرة دقيقة، حملت كوبين من الشاي الساخن، حين دخلت غرفته، توقفت للحظة، قبل أن تعود إلى المطبخ، وجدته غارقاً في نوم عميق.

زواج هه وليز

كاد الخال كاوه أن يعرقل زواج هه وليز، ما أن سمع بحكاية الخطوبة جاء منحدراً من قريته، وصل أصيل يوم السبت قبل يوم خطوبتها بيومين، كانت الساعة الثانية عشر وخمس دقائق ظهراً، في تلك اللحظة تصاعدت من مكبرات الصوت للمساجد آذان صلاة الظهر، وقف غاضباً رافضاً أن يدخل، معاتباً بشيء من الغضب، ظلّت هه وليز تتوسل إليه كي يدخل ليفهم القضية. قال لها:

ـ سألقي كلامي بوجهه وأذهب!

ـ لم يا خالو!

ـ كان من الواجب التفكير قبل رميك في متاهة!

ـ ماذا تعني بمتاهة؟

ـ لا تفكري في الأمر، أنّه فوق مستوى وعيك!

ـ أرجوك يا خالو أن تدخل، لا يليق بك أن تقف أمام الباب!

خرجت أم هه وليز، عانقت شقيقها كاوه، عاتبته لعدم تلبية دعوة خطوبة هه وليز، قابلها بخجل وصمت. قالت:

ـ ماذا دهاك يا أخي؟

ـ سأبقى هنا حتى يأتي!

ـ ربما يتأخر قليلاً!

ـ سأبقى حتى منتصف الليل!

تدخلت هه ولير:

ـ طالما ترفض الدخول، لنجلس في الحديقة!

قالت الأم:

ـ هل يعقل أن تُشهد الناس علينا، الخلاف يمكن حله!

توقفت مركبة الأب، تقدم من الخال كاوه، تعانقا ببرود. قال:

ـ سمعت بمجيئك، تركت المقر وجئت، كل شيء يمكن تسويته بالعقل!

وقف الخال كاوه حائراً، راح يدقق في العيون المنحوتة فيه، وجدها تتوسل، هز رأسه ودخل متأففاً معهم، صاروا في غرفة الضيوف. قال:

ـ قد تكون زيارتي الأخيرة!

أجاب الأب:

ـ لن نقبل هذا الكلام، لا تنقطع عنا يا عم كاوه.

قالت الأم:

ـ لما لم تجلب معك أمّي يا أخ؟

ـ لم أعلمها بمجيئي!

قال الأب:

ـ لا تنشغل بموضوع تقرر بحكم القدر والمصير!

ـ تلك هي الطامة الكبرى، نحن نصنع مصائرنا، نحن نحرك فلك حياتنا!

ـ ليس من الحكمة أن يهرب المرء من حقائق الحياة!

ـ المعركة التي حدثت بيننا، لا تشجع المرء على هذه الخطوة الوعرة!

ـ الحكمة تتطلب عدم استحضار تلك النقاط المظلمة في حياتنا!

ـ ليست نقاط، كانت ثورة كاسحة، أرادوا إلغاءنا من الوجود!

ـ حالة طارئة رتبتها الأقدار، ربما كانت فرصة مثالية لدحر كوارث كبرى كانت تترتب من حولنا في الخفاء، علينا أن نفكر بالجانب الآخر من الواقعة، أننا استفدنا وصححنا مسارنا الواحد!

ـ يبدو أنك نسيت الدم العزيز الذي بكيته!

ـ سكبنا دماءنا، سكبنا دموعنا، لكن الثمرة النهائية كانت الحرية التي لولا تلك الخصومات الشكلية لما أتت بهذه السرعة الخارقة!

ـ ما زالت حياتك الأيديولوجية تمضي كما كانت!

ـ مضى عهد السلاح، تراكمات النفوس من ترسبات قدرية تركة ثقيلة، تحتاج إلى نوع آخر من السياسة، تحتاج إلى سياسة الكنس!

ـ والدماء المتحجرة من يكنسها من القلوب!

ـ أن ننسى الأدنى، ونتطلع للأجدر، تلك هي فلسفتنا الحزبية!

ـ لا أقتنع بما أسمع، جرحي كبير!

ـ يا عم كاوه، ما جرى كان يجب أن يجري، نحن تقاتلنا في لحظة فقدان رشد، ربما أراد القدر من تلك المعركة، أن نطوي تحت رمادها نوايانا المتناقضة، علينا أن نتصالح كي يعرف كل فئة لم تقاتل ولمصلحة من تنزف دماءها، عراك أخوة في لحظة لنسمها غباء!

ـ الجرح.. الجرح يا أبا هه وليز.. عمييييق!

خرجت الأم من صمتها:

ـ أخي العزيز كاوه ، لا تدع بالك ينشغل بالحزن، هذا قدر مكتوب على أمّتنا!

قال الخال كاوه:

ـ يا أختي العزيزة، قتلوا أخي وقتلوا عم هه ولير، هل يعقل أن نندمج معهم؟

قالت الأم:

ـ العائلة التي خطبت هه ولير معروفة، لا تتعامل بالشكليات والخصوصيات الصغيرة، أنهم من علية القوم، لا يجب أن يفرط الواحد في يومنا هذا بفرصة مثالية جاءت إلى بيته!

ـ سمعت أن خال العريس مسئول كبير في حزبهم!

ـ و أبو هه ولير مسئول كبير في حزبك أيضاً! أجابه أبو هه ولير.

ـ تناقض.. تناقض!

قال الأب:

ـ يا عم كاوه، ضحينا بالقليل وكسبنا الكثير، نحن الآن في مشهد تاريخي حاسم، علينا أن لا ندع فرصة لمن يتربص بالإيقاع بنا، أو يحاول أن يعرقل جهودنا الكبيرة، أمامنا تحديات حاسمة لبناء ما خططنا له!

حدث صمت، قامت الأم وتبعتها هه ولير. قال الخال كاوه:

ـ لا تعملان شيئاً!

أجابت الأم وهي تنسحب:

ـ لا تقل أنني صائم!

قال الأب:

ـ الولد زميل هه ولير في الدراسة، ناس تليق بمقامنا!

ـ لن أتدخل في شؤون القسمة والنصيب، لكن الجرح القديم بدأ يوخز ضميري!

ـ حين يندمج المرء في الفرح الكوني، لم تعد للجروح الذاتية تأثيرات على مجريات السعادة الحاصلة!

ـ سأبقى حاملاً آلام تلك الأيّام السود لوقت طويل!

ـ بين الأخوة تحدث خصومات وتصل إلى بوابة القانون أحياناً!

ـ لكن جراحهم جرااااااح!

ـ حرب الأخوة انتهت بمنافع لنا، والحرب الكبيرة مع خانقي كرامتنا انتهت، نحن الآن في حياتنا التي تمنيناها!

ـ قولك عين الصواب، جئت عازماً على إشعال الحرب من جديد!

ـ لا.. لا.. أعتقد أن كل طرف وعى خساراته على المستوى السياسي والمعنوي، كل طرف عالج جراحاته بطريقة محايثة مع الواقع الجديد، لا أعتقد أننا سنخوض حرباً جديدة مهما كانت الخلافات والتباينات في وجهات النظر، هل تريدنا أن نتحارب من أجل مسألة روتينية، مسألة زواج مثلاً!

ـ للحق أقول، داعبني ظن وسكن صميمي، اتخذت قراري أن أطلق الرصاص على أبي العريس!

ـ هل فقدت رشدك يا عم كاوه!

ـ أليس هو مسئول كبير في قيادة العمليات العسكرية لحزبهم!

ـ وأنا أيضاً كنت مسئولاً في العمليات الحربية لحزبنا يومذاك!

صمت الخال كاوه، قام الأب وتوجه إلى الداخل عبر الباب الجانبي، دخلت الأم ووضعت كوب شاي أمامه. قالت:

ـ لا تثير قلب هه ولير، ما زالت تعيش فرحة تخرجها!

ـ أختي العزيزة، الأمر خارج إرادتي، ما زلت أبكي أخانا!

ـ شعبنا فقد فلذات أكباد، تحاربنا تحت راية الشيطان وعادت المياه لمجاريها!

ـ أعدك أن لا أثير قلب هه ولير!

في الصباح التالي غادر الخال كاوه من غير فطور، بدا غير راضياً رغم الحوار الذي دار بينهم، فهو بيشمه ركة قديم، تطبع بقساوة الجبال، قبل أن يجد نفسه، إنسان انتفت الحاجة إليه، عاد لمهنته القديمة فلاّح قبل أن يترك الأرض بسبب تهاطل الفواكه والخضر من دول الجوار، وارتفاع أسعار المشتقات النفطية، وأجور النقل، وفقدان الأسمدة الكيماوية، مما أضر بفلاّحي الداخل، قبل أخيراً مهنة حارس ليلي في محطة للوقود على الطريق العام الذي يربط دربند يخان بـ السليمانية، ظلّ يعيش في فلك الغضب، حاملاً ألم تلك الأّيام التي تسربلت بغبار غير مألوف، فقد جرّاء المحنة الأخوية شقيقه ريزان برصاص الهوليريين كما يحلو له وصفهم، قبل أن تلين إرادة الشر، ويترجل الغضب الشيطاني من برج العنف، تداخلت الأمور

وعادت الحياة الطبيعية لما كانت عليه، لكنه فشل أن يندمج مع المناخ الذي ساد.

بعد العشاء عاد لحواره العقيم، قال والعيون تراقب كلماته:

ـ لن يغادر خيالي الدم الذي سال، أنه نوّر دروب الحياة بمصابيح الحرية!

أجابته أم هه ولير:

ـ أخي العزيز كاوه، ليس من الحكمة أن يحزن المرء في يومنا هذا!

ـ هذا بالنسبة للذين جنوا ثمرات تعبهم!

تدخل أبو هه ولير:

ـ قطار الحياة يحتاج للوقود، علينا تنشيط رحلته، أنت أعطيت ما كان بوسعك إعطاءه، تلك هي السعادة البشرية، الثمار نضجت والناس من حولنا بدئوا يجنون عرق كفاحنا!

قال كاوه:

ـ إن كنت تحمل جراحي لما كان هذا كلامك!

ـ المثقف الواعي يرى جواهر الأشياء بعين متجردة من الذاتية!

ـ كافئوا مسيرتي براتب ضئيل سيغدو بعد أيّام أو أشهر مجرد قطرات ماء في محيط هائج!

ـ أنت متعب يا عم كاوه، هذا الموضوع يتعبك أكثر، دعنا نغير هذا الموضوع الذي شغلك كثيراً!

ـ ألقيت في النار حطباً، ليس بوسعي إطفاءها!

ـ قل ماء سكبناه على بقايا نار لم تخمد بعد!

ـ لم كل هذا الانجذاب إليهم؟

ـ ليس انجذاباً، بل رؤية خاصة لموازنة الأمور، لا يجب أن ننشطر، الانشطار يوّلد تفرعات مترهلة، ستأكل الأخضر واليابس كما يقولون!

ـ سمّيتها هه ولير وأعطيتها لفتى هه وليري.

ـ ترنيمة قدرية ستغدو انعطافه حاسمة لحياتنا الجديدة!

هنا حصل الصمت لدقائق، قام الخال كاوه، توضأ وأدى صلاة العشاء، وجد العشاء، تناول عشاءه وقرر أن ينام باكراً كي يعود فجراً إلى البيت.

لقاء كان لابد منه

ساءت أحوال نوزاد، لم تعد تنفعه مهاتفات شيرزاد ولا كلام أمّه، ظلّ في الليل يتوحد مع الصمت، مع الظلام، وفي النهار لا يبارح سريره، جاءه شيرزاد ذات ليلة ترافقه كلبهار تلك الممرضة التي كانت تسهر على علاجه أيّام غيبوبته، لم يشعر بمفاجأة أو يتحرك ذاته لسؤاله، باغته حين دخلا البيت:

ـ لا تسأل كيف استعجلنا القضية وعقدنا القران بلا وجع الرؤوس!

باركت أم نوزاد لهما مع عتاب خفيف:

ـ لما لم تعلمنا بذلك لشاركناكما الفرح!

قالت كلبهار:

ـ بعد شهر ستكونين في فرحنا!

قال شيرزاد:

ـ ليخرج الباش مهندس من قمقمه لنعمل فرحنا معاً!

أجابه نوزاد:

ـ سأترك الفرح كلّه لك!

تدخلت الأم:

ـ وهل يسمح لي مفاتحة الفنّانة كي نفرح معاً؟!

أجابها شيرزاد:

ـ وما هو دوره لتطلبين السماح، أنا سآخذك إليها!

ـ إذا خطوت نحوها خطوة واحدة، سأذهب إلى هناك! أجاب نوزاد بلهجة حاسمة.

قضوا ثلاث ساعات من الكلام، قبل أن يغادر الخطيبان، عاد نوزاد لصمته، ظلّت أمّه تحاول أن تقنعه بضرورة كسر هذا الحاجز فيه، واتخاذ قراره النهائي حول بيان رغبته من التقدم لطلب يد الفنّانة له.

***

دخلت الغرفة كي تقدم فطوره، لم يكن في سريره، كان مفتاح باب البيت مفتوحاً من الداخل، خرجت إلى صمت الزقاق، وجدت السيّارات تمرق والناس تخرج طلباً لأرزاقها، عادت وجلست على السرير، نهضت وداعبت قرص الهاتف، سمعت صوت شيرزاد. قالت:

ـ أرجو أن تأتي بسرعة!

بعد نصف ساعة وصل شيرزاد. قالت له:

ـ نهضت ولم أجده في السرير!

ـ إلى أين يذهب؟!

ـ أرجو أن لم يكن هناك!

خرج شيرزاد مسرعاً ودوّر محرّك مركبته بطريقة جنونية، ظلّت الأم واقفة بحيرة تراقب من وراء النافذة حركة العالم داخل الزقاق.

وصل شيرزاد قمة أزمر، متناقشاً القضية في أمره: "من الممكن أن يفعلها هذه المرة". كانت عيناه بقلق تبحث عن إنسان يمشي أو يطير في الفضاء، لم يكن هناك، لم يرغب أن يعود، ظلّ يصعد ويهبط: " ربما هو في الطريق". وجد شخصاً يتوقف منتصف الشارع، أنتبه إليه، تقدم منه وألصق وجهه بزجاج النافذة، أنزل الزجاجة. قال الرجل بسخرية:

ـ يبدو أنك نسيتني!

ـ ماذا؟

ضرب بكفه جبينه. أكمل كلامه:

ـ من..؟ ها.. ها.. لا أعرفك!

ـ آه منك يا محتال. قلت بله مشروب وانهزمت!

ـ لا.. لا.. لم أكن أنا.. ربما أنك توهمت!

ـ ها.. ها.. توهمت، حسناً لنرى!

قرّب الصورة التي أخرجها من جيبه إلى عينيه. قال:

ـ حسناً هذه صورتك!

نحت شيرزاد عينيه في الصورة الماثلة أمامه. قال:

ـ ومن أين لك هذه الصورة؟

ـ اشتريتها بثمن غالٍ من المصور الذي كان يصور كل شيء، أعطيته زجاجة بيرة مقابلها!

ـ حسناً كنّا في يوم فرح!

ـ قل هكذا. لا تنكر، أنت أطلقت علي كلمة ثقيلة!

ـ وما قيمة كلام فارغ مضى؟

ـ لا.. لا.. لن يذهب كلامك سدى!

ـ ماذا بوسعي أن أفعل، لك أقد خالص اعتذاري!

ـ خالص اعتذارك لي.. ها.. ها.. لا.. لا.. لا أريد منك اعتـذارات، أنـت ستدفع الثمن غالياً!

ـ أي ثمن؟

ـ ثمن تهجمك علي!

ـ حسناً.. أنا الآن في عمل مهم، سآتيك فيما بعد لتسوية القضية!

ـ وهل من الحكمة تحرير الطريدة كي ترتاح؟

ـ ماذا تريد؟

ـ يجب تغريمك!

ـ تغريمي لم؟

ـ نعم.. فرصتك الوحيدة لتسدد لي دينك!

ـ أتركني لدي شغل مهم!

ـ أن ترضى بما أطلبه منك فرصتك الوحيدة لتركك!

ـ وماذا تطلب؟

ـ أن تشاركني في شرب المشروب!

ـ لا أشرب هذه السخافات!

ـ ويحك.. أنت تشتم روح العالم، تسب ماء الحرية العالمية، سأصرخ وأنادي العالم عليك!

ـ يا عم.. لدي عمل مهم، سأعطيك ما تريد!

ـ اجلس معي ساعة واحدة فقط وأشرب معي المشروب الصباحي على حسابي الخاص!

فكر شيرزاد بحثاً عن وسيلة ليتملص منه، وجده يحتضن الباب، ربما سيقع له مكروه لو تحرك بسرعة قصوى، فكّر أن يهبط ويستغل فرصة مناسبة ويهرب منه، وجد الفكرة ممكنة طالما هو لم يتمالك نفسه، يتأرجح في وقفته. قال:

ـ سأجلس معك ولكن ليس أكثر من ربع ساعة!

فرح بله مشروب وفرك يديه طالقاً صداح فرحه عالياً، نزل شيرزاد من المركبة وتقدم من الكشك، دخل بله مشروب الكشك مغنياً، فتح علبتي بيرة ، قدّم عبوة ارتفعت الرغوة من فمها ما أن فتح سدادتها، ارتجفت أوصال شيرزاد وهو يمسك العبوة المثلجة، لحظة استدار بله مشروب لتهيئة بعض المزّة سكب شيرزاد نصف العبوة على الأرض، متظاهراً أنه احتسى من البيرة، نهض بله مشروب ووضع حبات الفستق وحبات الزيتون على الطاولة، كان شيرزاد يتلمظ بصوت كاذب. قال بله:

ـ أهذه الدرجة أنت مستعجل!

ـ كي أتخلص من شرّك!

ـ ومن قال أنك ستتخلص منّي بسهولة!

ـ أنا في ورطة، لدي مهمة لا تقبل التأخير!

ـ ما هي مهمتك يا معتوه؟

ـ صديقي صعد إلى القمّة لينتحر!

ـ ها.. ها.. يبدو أنه سئم الحياة!

ـ حسناً.. سآتي في الحال بعد الوصول إليه والعودة به لنكمل هذه الجلسة التاريخية على مزاجك الصباحي!

ـ حسناً.. لا تكذب على مدمني الخمور، حسابك سيتضاعف!

ـ هذا عهد بيننا!

ـ السكارى أصحاب الوعود الصادقة في يومنا هذا، تذكر كلامي جيداً!

وضع شيرزاد العبوة بشكل مستعجل، مما انقلبت وسمع صوت بله مشروب وهو يشتمه ويلعنه، كان قد صعد إلى المركبة وأنطلق بسرعة، وصل النقاط التي هي مساحات لجلوس الناس، وجد القمّة خاشعة لكسل كبير، وقف في المكان الذي أصطاده في لحظة سمو، أو في محاولة طيران كما يرغب التعبير عن تلك اللحظة، ترجل من المركبة وراح يرسل نظره إلى المهاوي الرمادية، كل شيء داخن، البيوتات مثل أشباح خرافية تتموج وتتفاعل كأنها أمواج مائية محتدمة تحت عاصفة مدارية لا ترحم، نقاط سود تتحرك متقاطعة، تلك النقاط عرفها، كانت مركبات متنوعة تلهث متموجة، كان فكره مشغولاً مزدحماً، لم يمتلك فرصة صحو كي يضع الحلول السريعة لكل سؤال سيطرحه ذهنه، ما أنفك القلق يساوره، كان عليه أن يتحرك بسرعة ممكنة وإيجاد صديقه الذي تبخر فجأة من غير بوادر أوليّة، بعدما قضيا معاً في الليل ساعات صاخبة، توزعت بين الجد والهزل، تمنى لو لم يفعلها، وأن يجده في ركن ما، يجلس أو هو نائم من هول الحزن

الذي يستوطنه. تمتم: " أين يروح هذا المجنون". استدار وعاد لمركبته وأنطلق عائداً، أتجه بحكم الغريزة صوب زقاق هه ولير كل شيء يخلد للصمت، أماكن لأناس أكابر، أنهم يسهرون كثيراً ولا ينهضون مبكرين، لم يرضخ لفكرة باغتته أن صاحبه الحزين ربما توجه إلى منزل الفنّانة، رغم أن الفكرة بدت معقولة لديه. تمتم: " يا ترى.. هل تخلّص من كوابيسه وثاب إلى رشده، أم فقد صوابه وجرفه موج العشق، وراح يلهث إلى بيت الفنّانة كي يتوسل أمامها لتقبله عاشقاً صرعه هواها". هز رأسه وراح يجوب الشوارع التي بدأت تصطخب بالمارة، المركبات تمرق بجنون، فكر أن يعود إلى أمه، داعبه هاجس ملح، ماذا سيقول لها، ربما هي أيضاً خرجت تبحث عن حزينها، توقف أمام بائع شاي، شرب قدحاً وعاد لمركبته، لم يعر انتباها للصوت المنادي من وراءه، كان فاقد الوعي، مشتت الذهن، داخل سيارته، باغته صاحب الصوت: " لم تدفع حساب الشاي يا أفندي". ضرب جبهته بباطن كفه متأسفاً، أعطاه حسابه، انسحب بائع الشاي هذراً: " ما زال بعض العالم يعيش بالحرام، أبناء الكلاب، أولاد الشوارع". لم يعد لديه رغبة لمعرفة ما يدور من حوله، أو يبصر الأشياء ويصغي للأصوات، حرّك مركبته وقرر أن يذهب إلى بيت الفنّانة، سيطرق الباب، هكذا فكّر وهو يهز رأسه، ليعلمها بالخبر غير السار، هذا إن كانت تهتم بشاب حزين التقت به في مصادفات متواصلة، تراجع فجأة عن قراره، لحظة تذكر أنه يجهل بيتها، ندم لأنه لم يسألها عن منطقة سكناها في المرات التي وقف أمامها، خفف من قيادته، حائراً، واهناً، لا يجد سبيلاً للخروج

من محنة صاحبه، رفع هاتفه الجوّال، حاول الحصول عليه، وجد الصوت النسائي يتكرر: " عذراً.. رقم الهاتف المطلوب مغلق أو خارج نطاق الخدمة، يرجى المحاولة فيما بعد". أخيراً قرر أن يعود إلى أمّه، ربما سيجده في البيت، تمنى ذلك قبل أن يصطدم ببكائها، رغم أنه لا يحتمل بكاء النساء، غريزة تسكنه، كان دائماً ينفر من المآتم، يكره الدموع التي تنسكب هدراً على وقائع بشرية مكتوبة يومياً، لحظة أصبحت المركبة في الزقاق رأى أم نوزاد واقفة بالباب، هرعت صوبه، أوقف المركبة ودون أن يترجل..قال:

ـ قلبت أحشاء السليمانية وغربلت القمّة ولم أجده!

أجابت الأم بهلع:

ـ أرجو أن لم يفعلها هذه المرة!

ـ يا عمّتي نوزاد كبر وصار يمتلك وعيه، لا أعتقد أنه قادر على مفارقتك!

ـ ليت قولك صحيحا!

ـ أدخلي البيت، سأواصل بحثي عنه، هي المدينة قبضة يد، أين يروح!

ـ سأنتظرك هنا، أنت أخوه الوحيد في هذه الدنيا!

تراجعت الأم، حرّك شيرزاد المركبة من غير أن يفكر بالخطوة اللاحقة، سار في الشوارع، شعر بجوع مباغت، تذكر أنه لم يتناول فطور الصباح، لحظة اتصلت به أم نوزاد، ترك الفطور وهرع لنجدتها، وجد أمامه مطعم شعبي يديره شاب متورد الخدين، مربوع الجسم، سريع الحركة، بشوش لا تفارق شفتيه الابتسامة، ينادي على المارين: " شوربة

عبد الله كلاري ". أوقف المركبة وتقدم نحو المطعم، جلس بين جموع العمّال والكسبة وهم يلتهمون شوربة العدس وسط ضجيج ودخان سجائر، جلس إلى طاولة على الرصيف، تناول ماعون شوربة دون رغبة في تناول الرغيف الحار رغم رائحته الزكية والبخار الصاعد منه، دفع حسابه وعاد إلى مركبته متجهاً من غير إرادة صوب القمّة ثانية، وجد بعض المركبات متواجدة، كانت الشمس مرتفعة، أوضحت الكثير من تفاصيل المدينة، وصل إلى نهاية القمّة، استدار وعاد وهو يغسل الجهتين بعين غير مرتاحة، فجأة أوقف المركبة ما أن ارتسم في المرآة العاكسة مشهداً لم يصدقه في البدء، ظلّ ناحتاً عينيه في المرآة، يريد أن يصدق ما يرى، حرّك المركبة إلى الخلف، أوقفها وترجل، ببطء سار بضع خطوات. وقف وصاح:

ـ كان يجب أن أجلب معي كامرتي الشخصية كي أصوركما!

التفتا معاً. امتقع وجه نوزاد وبقت الفنّانة مستقرة على ابتسامتها. صاح نوزاد:

ـ من أتى بك أيها الشقي؟!

ـ لولا توسلاتي لحققت أمّك العهد الذي أقسمت عليه!

ـ وقفت قبل هنيهة هنا، لكننا تركناك غارقاً في حيرتك!

ـ أنا لا أصدق، أنا في حلم!

أجابت الفنّانة:

ـ غادر من هنا قبل أن يقذفك إلى هذه الهاوية!

كانا يجلسان لصقاً على مدرج التزحلق للأطفال، يتحاوران في صباح هادئ، ظهر نوزاد بشكل مغاير عمّا كان، تساءل شيرزاد مع نفسه، ما الذي حصل وكيف حصل الذي حصل:

ـ أنا في حلم.. أنا في حلم..!

باغته نوزاد صائحاً:

ـ لم تصرخ يا صاح!

تفاجأ شيرزاد بما يسمع من صاحبه، وقف مستغرباً قبل أن يتمتم:

ـ أصرخ؟ ولم أصرخ؟ أ أنت متأكد من ذلك!

ـ ربما سيندفع رجال الأمن لاعتقالنا!

ترجلت الفنّانة وهبط نوزاد وراءها، وقفا أمامه. قال شيرزاد مستفهماً:

ـ ماذا يجري في العالم!

أجابه نوزاد:

ـ ألم تقل أنك في حلم!

ـ أحلام النهار حقيقة! قال شيرزاد.

ـ هيّا.. أعطينا ظهرك، ولا تفضحنا! صاح نوزاد.

ـ تأتيان معي! قال شيرزاد.

ـ كلا.. أتينا على أقدامنا وسنعود كما أتينا! تمتم نوزاد.

تدخلت الفنّانة قائلة:

ـ المشي الصباحي يفتق الذاكرة ويوسع الخيال!

ـ أرح أمّك، قل لها أنك بخير! قال شيرزاد.

ـ أرح نفسك، سنلتقي فيما بعد! قال نوزاد.

صعد شيرزاد إلى مركبته وأنطلق بجنون.

غداً.. أنا فوق القمّة

ما أن قفز من نومه وسحب هاتفه، وجد رسالة قصيرة، أربع كلمات أدخلته في متاهة وحيرة، لم يكن هناك أسم في ذيل الرسالة، قبل أن يقر دون أن يفكّر طويلاً، أن الموضوع لا يعدو مجرد مزحة أو رسالة خاطئة، أرسلتها بنت لولد، حاول أن يتلافى الأمر، وجد نفسه مستغرقاً في شروده المعتاد، بارحه النعاس، ولم يعر الموضوع أهمية جديّة، ظلّ ناحتاً عينيه في السقف، فهو لم ينم طويلاً، رغم رغبته للنوم، باغتته النغمات الصادرة من هاتفه الجوّال، فتح الرسالة الآتية في وقت متأخر من الليل، مد كفيه وفتح الرسالة ثانية، وجد الجملة القصيرة ما تزال تطوي غموضاً تعذر عليه فك مغاليقه، داعبته فكرة، كاد أن يركن لها، رغب أن يرد على صاحب الرسالة الآتية منتصف الليل، كانت الفكرة أن صاحبه شيرو ربما يريد مماحكته بعدما بدّل السيم كارت لجهازه، لم ترق له الفكرة، أخيراً قرر أن يرد بلطف. كتب: " من أنتِ؟". رددت الغرفة نغمات تالية، كانت أمّه غارقة في نومها، وجد رسالة صريحة تقصده. " أيها الحزين كن هناك على القمّة، في المكان الذي عطشت فيه". ارتجفت أوصاله، ما أن عرف صاحبة الرسالة القصيرة، لم ينم طوال الليل، كان متردداً، خائفاً من مجهول قادم لابتلاعه، كيف تبدلت أحواله، فشل أن يصل إلى شاطئ مريح، أو فكرة مقنعة، كي يعيد النظر في نفسه، كي يراقب جسده، كي يرصد التبدلات

الجارية في كيانه، في ليل لم يزره الأرق، قام وألقى نظرة خجولة إلى الزقاق، كل شيء يتلفع بسربال الصمت، عاود الكرة مرات، كلّما أستلقى على سريره، وجد دفق نداءات تواصل تحريره من ذاته، تريده ضحية ليلية لاحتفال كوني يتواصل، من يحرره من هذا العذاب الدائم، من يعيد له تلك الشجاعة التي تبخرت في لحظة واحدة، لحظة توكل وطار، برق ومض وألقاه صريعاً لأحزان تتهاطل عليه، لم يعد بإمكانه تفكيك أوراق الليل، مثلما كان يفعل كل ليلة قبل أن تطرحه الهموم بصفعات النوم، ولا المثول بخجل وخوف بين يدي الكوابيس، كي ينهض ويستنجد، دائماً كانت الأم تسعفه وترويه الماء قبل أن تعيده لنومه.

مات الليل، ماتت الساعات الطويلة، كان يسكنه هاجس بدا فقيراً، هاجس جاء في وقت كان يحاول الهروب من الحياة، تناول الفكرة بشيء من التردد والخوف، أراد أن يهاتف شيرزاد ويستعين برأيه، أو ربما يرافقه إلى رحلة مباغتة، وجد الفكرة مجنونة، ربما لن ترضى البنت بقراره، في خضم التناقش الذاتي، صدمه الفجر برشق صيحات الديك، تنمل الدم في جسده، رغب أن ينهض أمّه ويعلمها بالخبر، تقدم من غرفتها، كانت مائعة من كثرة السهر عليه، أشفق لحالها، سحب شهيقاً عميقاً، كظم زفيره، عاد وحرر رئتيه من البالون الحارق عبر نافذة غرفته، وجد نفسه أمام امتحان يشبه امتحان الحصول على إجازة سوق المركبات، شيء يحيط به، يلجمه بخيوط عناكب شرسة، ومجسات لاسعة تبنج إرادته، لم يعد ملك نفسه، وجد نفسه يستبدل ثياب النوم بأحسن ما كان يملك من هندام.

كان الصباح مستيقظاً بالكامل، الشمس كنست مخلفات الليل، خرج إلى الزقاق، خرج إلى الشوارع التي استردت عافيتها بعد ليل ممل، راح يمشي وهو يحاول أن يلملم موضوعاً يجابه به سؤال الحياة، عيناه لا تريان، وشاح الخوف، وشاح المصير، شيء من هذا القبيل مر به، لكم ود أن يتمكن من تمزيق الأوشحة التي حجبته عن رغبات كانت تمطره بسعادات موعودة، بيد أنه فشل في كل مجابهاته، ضاعت منه فرص ذهبية، أمام هه ولير كان الوشاح رمادياً، كان يسدل ستارة الرغبة أوان الحوار معها، لكن هذا الوشاح الصباحي لونه أبيض، يبدو مثل حليب معقم أو مطهّر من الزبد، حليب واقعي يمنعه من التدقيق بالأشياء من حوله، سار عبر الشوارع، فتى مهندم، لا يعرف أحد أنه يمشي من أجل شيء هو محور الحياة، شيء لولاه لظلّ الأب آدم نائماً في الفردوس إلى أبد الآبدين.

وصل بداية الشارع الأفعواني، الشارع الضاج عصراً بشباب آخر العمر، أرهط بشر لا ينتمون للواقع بصلة رحم أو إحساس، غارقون في السكر والعربدة، ومع كل خطوة كان قلبه ينخلع، عصف يتواصل، شهيق يتعسر، لسانه يجف، كاد أن يرتد، لحظة توقف، وسمح لمركبة أن تمرق، لكن خيوط العناكب الشرسة ظلّت تسحله، سار ببطء، وصل إلى المكان الذي طار منه، وقف ولام نفسه، أراد أن يلقي نظرة إلى الهاوية، وجد الرماد سيد اللوحة، قشعريرة باغتته، تراجع إلى الخلف لعدة أمتار، خوف مباغت سكنه، كانت الشمس حوّلت الدنيا إلى شعلة ضوء، لم يدم وقفته كثيراً، كانت المركبة قد توقفت، رآها تهبط وتحط أقدامها الناعمة على

بساط روحه، وقف مشلولاً، ماذا تريد منه هذه الحمامة الآتية في الصباح المتوهج، تقدمت منه، فتاة لم تذق طعم الخجل، الخجل البشري المفزع غير متواجد في قاموس أنوثتها، ربما هي شجاعة الموهبة، أو التحرر الكامل من جلد الروتين الأزلي للفقراء والمحرومين في البلدان المنكوبة بالكوارث البشرية المصطنعة، وقفت أمامه، ببنطلون صحراوي وبلوزة رمادي اللون غامق:

ـ نهارك سعيد!

ترنيمة مموسقة حررتها شفّتان ملائكية.

ـ نهارك أسعد!

شجاعاً وقف، بتحدٍ من تقدم يحارب.

ـ هل نقف هكذا!

انتهى شروده، لم يفهم ما الذي قالته جملتها الأخيرة..أردفت:

ـ لنمشي!

سار معها، كانت روحه غير متواجدة، عيناه مكسوتان بوشاح من حليب دائم التواجد، لسانه فقد مهنته، كائنان يمشيان في صباح يضج بعالم يلهث من أجل البحث عن لقمة طعام وحفنة أمان، لم يعد يمتلك شجاعته، كانت هي متحررة كاملة السعادة، ببنطلون آخر ما وصل إلى أسواق المدينة، تضع نظارتها على شعرها، تتنكب حقيبة نسيجية، ألواح خشبية مرزومة، تمشي برغبة متفتحة، كان هو يتضاءل ويضمحل ويذوي رويداً رويدا، مع كل خطوة يخطوها، وصلا إلى مجمع ألعاب الأطفال. قالت:

ـ أحب تسلق ذلك الدرج وأنظر إلى مدينتنا!

صعدت.. وجد خيوط عناكب شرسة تسحبه.. قالت:

ـ حزنك جميل!

وقف ينظر إليها، بدت كما رآها يوم زيارة معرضها الفني، نفس الألق وذات السعادة يغرقان عينيها.. قالت:

ـ انتهى كلامي!

صامتاً بحث عن كلمة مناسبة تفك عقدة لسانه، رغبت الفتاة أعادة كلامها حين رأته يبتسم.. قالت:

ـ ليت بوسعي رسم هذا الحزن الناطق، حزنك لا يطاق، حزنك وسيم.

وجد طراوة في لسانه، وجد نبعاً بدأ ينبجس واستحال إلى جدول ونهر وبحر ومحيط. قال:

ـ فشلت في دحره، أنّه عنيد أكثر مما يجب!

ـ للحزن وظائف فسيولوجية في الأجساد البشرية، لولا الحزن لما صدّت أجسادنا أمراض الواقع!

ـ أنت فيلسوفه!

ـ تعبير مباغت على لساني!

ـ ليس بوسع الفلاسفة الإتيان به!

ـ كل صاحب محنة فيلسوف في محنته!

ـ وهذا التعبير أكثر بلاغة!

ـ سيأخذنا الحديث خارج نطاق الخدمة!

ضحك وضحكت معه. قال:

ـ يبدو أن رصيدك مفتوحاً!

ـ رصيدي هو حب الناس لي!

توقف عن الكلام، أو تعثر لسانه، راح يتأمل الفضاء المفتوح تارة، مرة يلتقي عينيها، كل شيء فيها فرح، كل شيء يسكنه الرماد، كفتان متوازنتان، متعادلتان، هي في النور الدنيوي المنتشر، هو في رماد خانق، أو غبار يتواصل، كان الوقت يمضي سريعاً، شيء مختلف عمّا كان يعاني منه، كل أوقاته السابقة عصيبة كانت، كل شيء راكد، تنام أميال الساعة متكاسلة تزحف لنهش عمر الحياة، لكنها الآن هي نشطة تواصل تمزيق الحياة، ثلاث ساعات مضت، كيف مضت؟ ظلّ يشغل نفسه بأشياء عابثة تباغته، كانت هي ما تزال تحوك حوله رغباتها الفنيّة. باغتته:

ـ هل تتكرم أن تغدو موديلاً!

لم يفهم ما أرادت، ظلّ مبحلقاً فيها، كانت تتوقع ردّة فعل غير محمود، توقعت أن يزعل، أو يهاجم بلسان يخرج من فلكه، بيد أنه كان يريد توضيحاً عمّا بدرت منها، كانت الدقائق حرجة وعصيبة بين الكائنين، يجمعهما مقعد أو مدرج لدرج التزحلق، وجهاهما نحو المدينة المتناهضة، قلباهما ينبضان في عالمين مختلفين، أشاحت بوجهها عنه، كانت تبحث عن مبادرة منه، أو عن منفذٍ يعيد لها الصلة به، أستجمع ما وجد من مفردات كانت كافية لتشكيل جملة يواصل بها ترميم الفجوة التي شرخت المسافة بينهما:

ـ أنا.. مودييييل!

عادت من تجوالاتها البصرية، بعدما فشلت من إيجاد منفذ للوصول إلى ما ألقت من جملة متسارعة، أو جاءت من غير مدارسة، أرادت تشكيله من جديد، جملة تليق به، تحقق لها رغبتها، وجدته غارقاً، متأملاً، في أعماق عينيه هواجس طاحنة، وجدت أشياء كبيرة تتموج بفصاحة ووضوح، كانت قد تشكلت على مهل مذ التقيا هنا ذات عطش، تريد أن تستجمع كل طاقتها كي تستقبل زحف السيول المندلقة من أعماق فتى حزين، حزنه لافت للنظر، ليس كل نظر طبعاً، نظرها فقط، مذ رأته تحركت عربة موهبتها، وجدت نفسها أسيرة لتلك النداءات الأزلية التي تسكنها، لكنها لم تهتد إلى منافذها، قبل أن تصطدم به، في ذلك الأصيل الذي كانت ترسم، ليس أي حزن فحسب، بل الحزن الفطري، الحزن الذي وقوده الفن بكل تجلياته، بكل عناوينه، بكل ألوانه، بكل مدارسه، تشجعت أن تعيد رغبتها. قالت بهمس ذبيح:

ـ أن تقف وأرسمك!

خرج من زنزانته، راح يصفق، راح يطير.. صاح:

ـ سأقف ما تشائين من الوقت!

ـ ربما أحتاج إلى ساعات لأستوعبك!

ـ سأقف دهراً كاملاً!

لم يعد هناك وقت تهدره، بدأت بإخراج فرش الرسم وهبطت من السلّم وصارت أسفل المدرج، فتحت ألواح المرسم، كان يراقبها وهي

مرتجفة تشكل الألواح التي غدت بعد أعادات متكررة مرسمها المتنقل، ينظر مأخوذاً يكاد لا يصدق نفسه، يخالجه اليقين أنّه في حلم من الأحلام القليلة العابرة، فهو كثير الهذيان، قليل النوم، دائم الاستيقاظ، أعدّت مستلزمات الرسم وراحت تستدرج ملامحه وتركز على عينيه، كونهما منجمان غير مكتشفان، لم يمل من جلوسه، لم يرغب محاورتها، كان طائراً مثل صقر يترصد طريدته، ساعة ونصف الساعة، كانت كافية لاستخراج بعض الجواهر الدفينة فيه. باغتته:

ـ هل بوسعك النزول!

قفز يقف لصقها، لم يصدق ما يرى، هو بنفسه، كيف نحتته كما هو، صاحت أغواره" يا لها من عبقرية!. ظلّ صامتاً يتأمل نفسه، كانت هي غاطسة في فرح مباغت، فرح أكبر من الرغبة التي سهرت الليل كلّه من أجلها، فرح يساوي هذا العالم المنشغل بالشكليّات والروتينيّات التي تنهش في براءة الوجود، تراجعت إلى الوراء خطوات، لم يشعر بما فعلت، كان يندمج في حوار صامت مع هذا الذي يشبهه، استدارت وراحت تنشر استفزازات الفرح الذي أنتشر كضياء الشمس فيها، استردت توازنها وعادت إليه:

ـ ما هو رأيك؟ همست.

ـ أنت فنّانة كبيرة!

ـ أريد رأيك الصريح!

ـ ليس بوسعي التعبير، لقد شليتي لساني!

ـ أنت تجامل!

ـ أشعر أنك تفهمينني!

ـ ذلك هو مطلبي!

توقف الكلام وصعدا من جديد إلى المدرج، في تلك اللحظة توقفت سيارة وهبط شيرزاد وراح ينظر إلى المدينة الضبابية. قالت:

ـ من أتى به؟

ـ يا له من ملعون شم رائحتنا!

ـ لا أحبذ مناداته!

ـ وأنا كذلك!

ركب شيرزاد سيارته وأنطلق، ساد الصمت للحظات، تصاعدت نغمات من موبايل الفنّانة، سحبته من جرابه وراحت ترد:

ـ أنا مشغولة بلوحة جديدة.

ـ .....!

ـ عصراً سنلتقي!

ـ .....!

ـ حسناً.. كما تشائين!

أعادت الهاتف إلى حزامها. قالت:

ـ صحافيّة تريد لقاءً معي!

لم يفه بشيء، كان يتأمل نفسه، يقرأ تاريخه الناطق عبر عينيه في اللوحة، تفاجأ بشيء أثير" هل حقاً أحمل كل هذا الهم؟ كل هذه

المكابدات؟". حرّك رأسه وصارت عيناه في عينيها، وجدها تبتسم، كان غارقاً في وجه لا يشبه الوجوه التي مرت به، وجه واسع فيه حقول وبراري وجبال ووديان وغابات وجداول وأنهر وطيور وناس، أعاد بصره ليتأكد من هطول الآلام من عينيه في اللوحة، في تلك اللحظة كانت الفنّانة تعاين ساعتها. تمتمت:

ـ ليس بوسعي البقاء أكثر مما بقيت!

ماذا قالت؟ غمغم، هي قالت شيئاً، شعر بوخز الندم لأنه لم يصغ لها، اكتفى بالتفاتة ونظرة، كانت تغطس في شيء مألوف، الآن هو مجهول، ربما لأنه لم يعد يفهم نفسه، مثلما كان دائماً لا يريد أن يفهم نفسه، كانت الحياة أقوى منه، رغم توفر مقومات الإنسان الناجح فيه، وتواجد زملاء لا يملون حزنه، وجدته يصارع نفسه، ربما، غمغمت أغوارها، خجل اللقاء، وربما طبيعة فطرية فيه، فتى لا يبذر الكلمات عندما يتكلم، لم تجد بد، أرادت أن تحسم الموقف. كررت كلامها:

ـ ليس بوسعي البقاء أكثر مما بقيت!

فهم مرامها، تشجع أن يتكلم:

ـ أشكرك!

ـ على ماذا؟

ـ سحبتِ مزابل جسدي!

ـ لا أفهم كلامك!

ـ كل هذا الطوفان الذي أخرجتي من عيني، تستحقين عليه الثناء والتقدير!

ـ آه.. لا تقل أنا طبيبة نفسانية!

ـ أشعر أن هناك من وجّهك لإخراجي من كوابيسي!

ـ أيّة كوابيس؟

ـ تأتي دائماً وتأخذني عن العالم الذي أتواجد فيه!

ـ أنت مسكون ببذور الشعر!

ـ آلامي شعر دائم النزف!

ـ لهذا السبب طلبتك!

ـ سبب؟

ـ ذلك هو سر نجاحي الدائم!

وقف غارقاً يتأمل، باحثاً عن مسعف فوري، واصلت كلامها:

ـ كل صباح، أو بالأحرى، كلّما أشعر بضغط الرغبة وتوفر مقومات الموهبة، أأتي إلى هنا، حتى لو كانت الثلوج تهطل، فأنا لا أرسم داخل المشغل، الرسم في الهواء الطلق يمنح الرسّام فرص أكثر للتفاعل مع العالم، ومع المستقبل!

ـ لا علم لي بهذا الموضوع!

ـ أحياناً لا رغبة أمتلك في الرسم، أأتي وأتصفح وجه سليمانيتنا، أتأمل الجبال الشاهقة، أمنح روحي رغبات التحدي، أحاول أن أملم كل قطرة دم سالت هناك..هناك..هنا!!!!!!!!...!

توقف لسانها وأجهشت في بكاء هادئ، وجد نفسه مستفزاً، وجد وشاحاً أبيضاً مثل الحليب يملئ عينيه، راح يشاركها البكاء، لم يعرفا كم

بكيا، وجدا نفسيهما وجهاً لوجه، عيون دامعة، أشياء غامضة تتكلم، ليس بوسعهما تفسيرها أو قراءتها. قال:

ـ اعذريني!

تلمظت وأعادت التوازن للسانها. فاهت:

ـ كنت بحاجة إلى هذا البكاء!

ـ أليست الحياة كلها بكاءات متواصلة؟

ـ كل بكاء دواء!

ـ تسببت في خسارتك لبعض ماء عينيك!

ـ البكاء مزمن، جهلت منبعه، جئت من عالم الحظ وهديتني إلى بوابته، أنا أشكرك على هذا!

صار أكثر توازناً، أكثر قرباً منها، داهمه إحساس التوحد معها، صار جزءاً قديماً منها، جزءاً ليس بوسعه المضي قدماً بدونها، تذكر قول صاحبه" " كل فتيات السليمانية هه وليرات". تلاعبت نفسه وهو يستذكر هه ولير، شعر بخوف مباغت، تساءل: " ماذا لو عرفت حكايته؟". حتماً ستتركه يواجه من جديد تلك اللحظة، يوم التخرج، يوم وجد نفسه في تحليق أبدي لولا صاحبه شيرزاد، ربما جاءت لحظة نهايته في يوم مفرح هذه المرة، خاف وارتعدت فرائصه، رغم يقينه أن صاحبه شيرزاد مازال مترباصاً في زاوية ما، ينتظر نهاية هذا اللقاء الساخن، بعدما فاجأهما وأخذ وقتاً منهما، كي يهيأ نفسه لإيصال الكائنين إلى منزليهما، في تلك اللحظة كانت الفنّانة تلملم أشياءها وتعيدها إلى حقيبتها، عاد من شروده، وجدها تنحت

عينيها فيه، كانت بقايا الدمع مزججاً يتوهج بقوس قزح لم يفهمه، سحبت شهيقاً، كأن الهواء كله سار دفعة واحدة، مرقت من حوله واتجهت إلى أغوارها الظامئة، كاد أن يرتفع مع ضجيج الهواء المتسارع، هكذا شعر، إلى جوفها، لكن برق أبرق ورعد أرعد:

ـ حان موعد العودة!

في تلك اللحظة، عادت السيارة وهبط من جديد شيرزاد متقدماً نحوهما، فاتحاً ذراعيه، هبطا وصارا وجهاً لوجه، لم يدم الحوار طويلاً.

عاد شيرزاد تاركاً الاثنين معاً لتكملة المشروع الذي جاءا من أجله.

بعد نصف ساعة أكملت لوحتها ولملمت معداتها. قالت:

ـ حان موعد العودة!

مشت الفتاة وهي تنوء بحمل معداتها، ركض وراءها، كان يسير وراء حلمٍ تفاعل معه، سكنه بحنو وتناغم معه برفق، حلم لا يشبه مطلقاً أحلام الفقراء!

الأم تنتظر

لم تعد تحتمل أكثر مما احتملت، دخلت إلى البيت، تناولت عباءتها وهرولت إلى الخارج، مشت إلى نهاية الزقاق، أرادت أن تتجه إلى أزمر، لابد وأن تجده هناك، تمنت لو أنه يتواجد هناك، جالساً يبكي، أو ربما وجده شيرزاد في اللحظة الحاسمة، وقبّر رغبته الدائمة في تلك الطريقة البشعة لترك الدنيا، تمنت إن لم يفعل ما كان يردده دائما، رغبته الوحيدة، التخلص من هذه الحياة اللئيمة، بطريقة تحسس الحكومة بمسؤوليتها تجاه الناس وأحلامهم، لولاها لما عاش، دائماً كان يقول ذلك أمامها، فهو الوحيد المتبقي، عانت أهوال الزمن، دفنت مكروهات السياسة، وكل إشكالات التهجير والتهميش والجوع، رفضت أن تتزوج مذ أخذوا والده وضاع إلى الأبد، نزفت يومها كامل دموعها، وأفرغت خزائن أحزانها، جلست مع أمها لا شيء تملك سوى الجنين اللابط في أحشاءها.

في ليلة عاصفة، كانت السماء تجلد الأرض بوابل المطر، وريح ترعب الناس بسيمفونية متقصفة، سيمفونية لا يعيها إلاّ الفقراء والمحرومين، فاجأها المخاض، بين جارتين تمكنتا من التسلل بإعياء تام ومكابدة القسوة المناخية والوصول إليها طرحت الجنين، ولداً لم يبكِ كما يبكي كل جنين يهبط من رحم الأم إلى دنيا العذاب، خلدت لراحة استثنائية، رعته وحقنته طباعها، صار الولد يكبر ويتقدم في مدرسته، دائماً كان يريد والده، دائماً

تقنعه بأنه موجود في بلدٍ ما يعمل ويرسل لهما النقود، في عينيه قرأت أشياء كثيرة، كانت تشعرها بشيء من الخوف، بينما ظلّ الطفل غير مقتنعاً بما كانت تقول، نما الحزن وراح يوشم براءته ببذور العزلة والانطواء، كان يأخذه إلى عوالم نائية، يعود منها بظمأٍ واضح الملامح في أعماق عينيه، بدأت علامات الحزن تلح وتتطبع فيه، في نبرته، في تصرفاته، في نظراته، مذ فقدت صبرها ودلقت ما في جوفها من السر. قالت له:

ـ يجب أن تفهم القضيّة وتكتمها!

ـ لم خبأتِ الأمر كل هذه السنين!

ـ لم أرغب مشاركتي حزني الكبير!

كانا يجلسان في غرفة الطعام، لم يرغب أن يتناول شيئاً، كان عائداً من مدرسته، يسكنه الفرح، وهو يقدم شهادة نجاحه إلى أمّه، وزّعت أمّه أقداح العصير على الجيران، ظلّت مثل حمامة حديثة الطيران تتنقل بخفّة ونشاط، سمع القصّة كاملة، ظلّ واجماً، ملجوم اللسان، حتى أنه لم يشعر بأنامل أمّه والتي كانت تمسح الدموع التي تهبط من عينيه، خلد لصمت طويل، صمت أعقبه نعاس شديد، ساقته وأنامته على سريره، في الصباح وجدته يجلس قرب النافذة، دنت منه، لم يحرك ساكناً. قالت له:

ـ لم هذا التغيّر يا ولدي؟

سحب شهيقاً صائتاً، نقل عينيه إلى وجه أمّه، كانت تستفسر وتريد إيضاحاً حول فعلته. قال:

ـ لم حرموني من أبي؟

ـ تيتمنا باكرين!

أسقط رأسه في حضنها، سمعته ينشج، راحت تربت على ظهره، شعرت هي أيضاً بحاجة إلى البكاء، ربما آخر بكاء بالنسبة لها، بعدما حققت رغبتها، رغبة أن تبوح لولدها سر اختفاء والده، لتبدأ حياة جديدة، حياة خالية من الصمت والبكاء، طالما الولد كبر وأجتاز مرحلته الدراسية بنجاحٍ كبير، هو على أعتاب الكليّة، بكت معه ولكن بصمت، رفع نوزاد رأسه، وجد أمّه غارقة في دموعها، راح يمسح دموعها بأنامله، لحظة انتبهت. قالت:

ـ ليكن آخر بكاء في هذا البيت!

أجابها:

ـ وزعت دموعك على دهرين كاملين، لا تجف دموعي بجلسة بكاء واحدة يا أمّي!

ـ حياتنا القادمة تستوجب اليقظة وعدم ضياع الوقت!

ـ يتواجدون قربنا، العيون تطاردني أينما أكن!

ـ أكتم سر اختفاء والدك، قل لهم" مفقود حرب وكفى!

ـ رغبة الانتقام من أجل أبي تدفعني!

ـ الزمن تكفل بأخذ حقوقنا منهم!

قامت وسحبته من يده، وصلا غرفة الطعام، وتناولا الفطور.

***

كان الوقت ليلاً عندما طرق الباب، خرجت ووجدت رجالاً مخيفين، صاح أحدهم:

ـ أين زوجك؟

يد مباغتة أوقعت المرأة على الأرض، تم اقتحام المنزل من قبل رجال غرباء، سحلوا الشاب وسط صراخ زوجته، ألقوه في حوض مركبة عسكريّة ومضوا به، تدخلن نساء الزقاق بتهدئتها، قالت جارتها:

ـ غداً سيعودّ

ـ أريده الآن!

قالت امرأة أخرى:

ـ دائماً يأخذون أولادنا!

صاحت المرأة المفجوعة:

ـ وهل يعودون!

تلك الليلة الطويلة قضتها المرأة بكاءً، في الصباح رافقتها جارتها إلى أهلها، لم يعد زوجها ولم تعد تعرف عنه شيئاً منذ تلك الليلة، مضت السنوات، ظلّت تنشغل بالولد الذي صار يكبر وهو يشبه شيئاً فشيئاً والده إلى حدٍ كبير.

***

مرّة قال لها:

ـ كيف وجدتِ أبي؟!

لم تعرف مقصده. أجابت:

ـ أنت تشبهه كثيراً!

ـ كيف تعارفتما؟!

ـ وهل هذا وقته؟!

ـ أريد معرفه أبي!

ـ كان يلاحقني وأهرب منه!

ـ أكان لا يستحق الحب؟!

ـ خلجة خجل كل فتاة تشعر أنها مثار اهتمام شاب ما!

ـ وكيف وصل إليك؟

ـ كان يتبعني، كان خجولاً، وجدت في نفسي شجاعة مباغتة، شجعته على الكلام!

ـ ماذا قال لكِ؟

ـ قال" لم فلان يلاحقكِ؟!

ـ ومن هذا الـ فلان؟

ـ ولد مشاكس كان لا يتورع من الحرشة بنا!

ـ وماذا قلتِ أنت؟!

ـ هو غير مؤدب؟

ـ وماذا قال بعد؟

ـ قال أنّه سيؤدبه أمام أنظار بنات الزقاق!

ـ وهل أفرحك ذلك!

ـ قلت له لا تفعل ذلك، ربما ستحدث مشاكل كبيرة!

ـ وهل أقتنع؟!

ـ كان رأسه إلى الأرض، بعد برهة رفع رأسه وقال بصوت خافت" أنا أحبك!

ـ وهل فرحت يا أمي؟

ـ كل فتاة تفرح حين تسمع هذه الكلمة!

***

وصلت الأم إلى مشارف قمّة أزمر، لعب عقلها، شعرت بفقدان تدريجي لبصرها، رأت نفسها تطير وتحط قبل أن تجد أناساً يتجمهرون من حولها ومركبات زاعقة للشرطة تتسارع نحوها، تحجر قدماها، تهاوت إلى الأرض، لم تعرف كم أستغرق تمددها، وكيف تم نقلها إلى المركز الصحّي، استعادت شعورها، وجدت ممرضة جميلة واقفة قربها. قالت الممرضة:

ـ كيف حالك الآن؟

ـ ماذا حدث؟

ـ المهم سلامتك يا عمّة!

ـ لماذا أنا هنا؟

ـ كدت تموتين، لكن السائق أختار الموت لنفسه!

صمتت، أرادت أن تعرف معنى لكلامها، عن أي سائق تتحدث، من مات، رغبت أن تصرخ، لحظة تذكرت شيرزاد، هو من يمتلك مركبة، وهي من أرسلته للبحث عن نوزاد، أرادت أن تنهض، وجدت نفسها

مربوطة إلى السرير، وهن كبير يـشلها، عـادت الممرضـة وهـي تحمـل لهـا الدواء. قالت لها:

ـ يا بنتي! ماذا حصل؟ أخبريني أرجوك!

كانت تعمل بخفّة ونشاط. تكلمت بهدوء:

ـ كادت المركبة أن تدهسك!

ـ أيّة مركبة؟ ما لونها؟ ما أسم سائقها؟

ـ مركبة حوضية تعود للبلدية!

بدأت الراحة تسري في عروقها، رغم بقايا التأثير الذي ظلّ يـشتت فكرها، لم تعد تعرف ماذا تقول، الضجيج يستعمر ذهنها، قبـل أن تـردف الممرضة:

ـ لم خرجت في هذا الوقت؟

ـ خرجت أبحث عنه!

ـ تبحثين عن من؟

ـ أبني!

ـ وهل هو صغير؟

ـ سيبقى كذلك!

ـ وهل هو يعمل؟

ـ هو مهندس؟

توقفت الممرضة عن العمل، نظرت إليها، تريد أن تعـي مـا سمعـت، واصلت أم نوزاد كلامها:

ـ أبني مهندس حديث التخرج، ينتظر فرصة عمل!

ـ أخي مهندس ينتظر فرصة التعين أيضاً!

ـ وهل أنهما أصدقاء؟

ـ ربما ذلك!

خرجت بعدما حقنت أم نوزاد بحقنة مهدئ، عادت الأم من جديد إلى الخلود لصمت عميق أفقدها وعيها ونامت.

***

عند المساء تفاجأت الأم بدخول نوزاد و شيرزاد عليها، كادت أن تقفز من السرير، لولا الممرضة التي أحجمت انفعالاتها، جلس الولدان قربها، بكت الأم بصمت. قال نوزاد:

ـ ألم نقرر ترك البكاء!

مسحت دموعها. تمتمت:

ـ تسببت بقتل سائق!

أجابها شيرزاد:

ـ لم يمت يا عمّة! زرناه، هو هنا في الردهة العليا!

فرحت وقالت:

ـ أخبراني!

قال نوزاد:

ـ يا أمّي السائق تعافى من الصدمة ولديه بعض الرضوض البسيطة، قرر أن يتنازل عن القضيّة كونه قريب خطيبة شيرزاد!

قالت الأم:

ـ ليت بوسعي النهوض كي أقدم اعتذاري له!

ـ سنزوره حين تتعافين!

تم نقل الأم إلى البيت، كانت تشعر بغثيان وخوف، جلس نوزاد قربها، قبل أن يتمدد وينام.

بادرة أولى خطوبة

ـ هل حقاً ما سمعت؟

ـ وماذا سمعتِ يا أم؟

ـ ما رواه شيرزاد!

ـ وهل تصدقين بكلامه؟

ـ لكنه أقسم على ما شاهد!

أطرق نوزاد برأسه إلى الأرض، كانت أمّه تراقب وجهه، لم تعرف عنه مثل هذا الخجل المباغت من قبل، أراد أن يستجمع نفسه ويتخذ قراره، بعدما تكشفت أوراقه، رفع رأسه، كانت تنحت عينيها فيه، وجد في عينيها سؤال يرفض تأجيل أجابته، مد يده وربت بكفه اليمين على يدها. تمتم:

ـ سأضع حداً لما حصل بيننا!

ـ كيف حصل ذلك؟

ـ لا أعلم!

ـ كنتما معاً!

ـ كيف حصل ذلك هذا ما لا أعرفه!

ـ جميلة.. لكنها...!

ـ لكنها.. ماذا يا أمّي!

ـ متحررة!

ـ أليست الحياة تفرض متطلباتها علينا!

ـ نعم.. ولكن الحياة التي تعودنا لا تحتمل هذا اللون الدخيل عليها!

ـ هي مرحلة عابرة!

ـ أرجو ذلك!

ـ ماذا نعمل؟

ـ لنفاتح شيرزاد! ربما سينفعنا!

ـ أنت صاحبة القرار يا أمّي.

***

تعافت الأم بعد يومين من خروجها، كانت جالسة مع نوزاد في فناء البيت لحظة سمعت صرير إطارات مركبة، قامت ووجدت شيرزاد يقف أمام الباب، دخل وعانق نوزاد. قال:

ـ يبدو أنك تعمل من ورائي عجائب ومصائب!

ـ عن أيّة مصيبة تحاسبني؟

جلس على الكرسي، أشار إلى أم نوزاد وهو يصيح:

ـ كدت تغدو سبباً لموتها!

قالت الأم:

ـ ليس هذا وقت العتاب، دعونا في صلب القضيّة يا أولاد!

قام نوزاد وأراد من أمّه الجلوس مكانه، رفضت الأم، ظلّت واقفة، صاح شيرزاد:

ـ عن أيّة قضيّة تتكلمين؟!

ـ قضيّة نوزاد!

تدخل نوزاد:

ـ أبو المشاكل جهز نفسك!

ـ سنأخذك إلى القمّة كي نتخلّص منك!

قالت الأم:

ـ لا لن أسمح لك أن تأخذه، نوزاد اليوم ليس كما كنت تعرفه!

صاح شيرزاد:

ـ اليوم أشم رائحة مؤامرة من غير علمي!

قالت الأم:

ـ هي مؤامرة اجتماعية!

ـ وضحِ كلامك!

ـ نوزاد سيحذو حذوك!

ـ فهمت القضية!

اكتفى نوزاد بنظرة عميقة نحوه، كان فرحاً يُرقص جسده، ذهبت الأم وعادت بقدحي شاي.

واصل شيرزاد كلامه:

ـ هذا وقت الشاي أم وقت الزغاريد والعصير!

أجابت الأم:

ـ لتمضي الأمور بخير كي تستحم بالعصير!

ـ من أجلك سأستحم بالعصير، على الرغم أن الناس بدأت تسبح بالعسل والحليب!

قال نوزاد:

ـ شيء واحد مازال يحيرني!

أجابه شيرزاد:

ـ كل حياتك حيرة، ما هي حيرتك الجديدة؟

قال نوزاد:

ـ كيف عرفت رقم هاتفي؟!

ضحك شيرزاد بصوت مرتفع، قبل أن يقوم من كرسيه وينقر على رأس نوزاد نقرات بسبابته. قال:

ـ تذكر المعرض كي تعرف كيف حصلت على رقم هاتفك!

ـ آه.. تذكرت! ندّت صيحة من فم نوزاد.

في تلك اللحظة تذكر نوزاد يوم المعرض الفنّي، حين كتبا في سجل التشريفات كلمات إعجاب وتركا أرقام هاتفيهما، بناء على رغبة الفنّانة.

***

عندما خرجوا في تلك الليلة ظلّ شيرزاد يشق أحشاء الأزقة والشوارع دون أن يهتدي إلى بيت الفنّانة، ساعة ونصف الساعة وهو يوقف المركبة ويسأل. قال نوزاد:

ـ لنعرف أين يقع بيتها قبل أن نتخذ قرارنا!

أجابه شيرزاد:

ـ غبائي من غباءك، الآن أشتغل مخك، أين كنت قبل أن نتحرك يا حزين؟

قالت الأم:

ـ لنعود ونحاول غداً بعد السؤال عنها!

قال شيرزاد صائحاً:

ـ خلّصت جلكان بنزين وتريدينا أن نهزم من المهمة غير المستحيلة!

ـ يمكننا التحري غداّ عن البيت ونقوم بزيارتهم! ردته الأم.

قال نوزاد:

ـ أعتقد أننا مضينا بعيداً، أعتقد أنني سمعتها تقول بيتنا قرب مجمّع سردم.

أجابه شيرزاد:

ـ كان من الأولى سؤالها، بدلاً من تصريف كلام كاذب على أسماعها!

أوقف شيرزاد المركبة، سحب نفساً عميقاً. صاح:

ـ وجدت الحل!

قالت الأم بلهفة:

ـ وجدت بيتها؟!

ـ سأجده ولكن عليكم الصمت إزاء ما أعمل. قال شيرزاد.

نظر نوزاد إلى صاحبه، بينما كان صاحبه يتحرك من جديد ويستدير إلى الوراء، شق الطريق بعجالة مقتحماً حي المسئولين الكبار. تكلم نوزاد:

ـ أين تأخذنا؟!

ـ اتفقنا على الصمت! صاح شيرزاد.

أوقف المركبة، هبط وسار باتجاه منزل فخم، في تلك اللحظة خفق قلب نوزاد، رأت أمّه علامات قلق بدأت تتحرك على ملامحه. همست:

ـ هل هذا بيتها؟

لم يتكلم الولد، كان في عالمٍ غامض يمشي، هزّت الأم الولد وهي تردد سؤالها، ظلّ الولد صامتاً، فاقداً لسانه، نقلت الأم نظراتها المستفسرة، وجدت شيرزاد يحاور فتاة، غامت الرؤية، حاولت أن تعرف إن الواقفة ربما هي من جاءت لخطوبتها، قبل أن تتراجع عن يقينها، بعدما رأت بوضوح أن البنت قطعة قمر أو جليد بهيئة دمية، تبدو جميلة أكثر مما يتصور العقل البشري، تمنت في تلك اللحظة أن يراجع نوزاد نفسه ويبدل قراره، فقط لو عرفت من هي هذه البنت التي استقبلت شيرزاد برحابة صدر، عاد شيرزاد يتمايل من فرحة غامضة، كان صوت صفيره ينتشر في المكان، دخل المركبة، وجد صاحبه غائباً كليّا عنهم، حرّكه، أنتفض نوزاد كأنه تخلّص من كابوس ثقيل. قالت الأم:

ـ من هذه الغزالة؟

صاح شيرزاد:

ـ هذه التي دمّرت نوزاد!

ـ ماذا تقول؟ صاحت الأم.

ـ كاد الطيران من فوق أزمر من أجلها!

في تلك اللحظة عاد نوزاد من شروده المباغت، ظلّ ناحتاً عينيه في صاحبه وسط صمت الأم واستغرابها، بينما كان صاحبه يواصل صفيره غير المنتظم. تمتم نوزاد:

ـ متى بدأت تصفر؟

ـ منذ انتعشت أغواري برائحة هه وليرتك! صرخ شيرزاد.

تدخلت الأم:

ـ دعونا من هذا الجدل، أين نمضي في هذا الليل؟

قال شيرزاد:

ـ إلى حبيبة قلب الباش مهندس!

صاح نوزاد:

ـ عد بنا! أرجوك! عد بنا!

أوقف شيرزاد المركبة فجأة. صاح:

ـ حسناً.. أنت معتوه!

عادوا إلى البيت، أوقف شيرزاد المركبة وقبل أن تهبط الأم. قالت له:

ـ لم فعلت ذلك يا بني؟

ـ أردت معرفة بيت الفنّانة يا عمّة!

ـ وماذا قالت؟

ـ أعطتني العنوان المضبوط!

ـ هل هي زميلتها؟ قالت الأم.

قال شيرزاد:

ـ أشترت خمس لوحات يوم المعرض، لابد أنها تركت لها عنوانها، فكرة دارت برأسي جاءت غير مخيبة بالنسبة لي في أقل تقدير!

ـ أنت مجنون! صاح نوزاد زافراً.

قالت الأم:

ـ غداً موعدنا!

ـ ليس قبل أن يرعوي الباش مهندس! صاح شيرزاد.

كان نوزاد قد دخل البيت، ما أن وقفت المركبة دون أن يحرِّك ساكناً، هبط وهرع داخلاً، لحظة دخلت الأم وجدته مستلقياً على سريره بكامل هندامه، أرادت أن توقظه، وجدته غارقاً في نوم عميق.

***

في الليلة التالية، مع أذان العشاء الذي تصاعد من عدّة مآذن، توقفت المركبة، كان نوزاد مضطرباً، وكان شيرزاد كمن يقود صولة حربية على بيت محاصر، واصل صفيره المزعج على حد قول نوزاد، وراءهما كانت الأم تلهث وقلبها بدأ يزيد من نبضاته، كانت مسكونة بخوف بدأ ينمو مع كل خطوة، كانت تخاف من رفض البنت لأبنها، في بالها شيء لا ترغب التفكير فيه، فهي تريد التخلّص كليّاً من حزن الولد، طرق شيرزاد الباب، خرجت امرأة، وجدت نفسها أمام امرأة وولدين. قالت:

ـ تفضلا!

أجابها شيرزاد:

ـ نحن ضيوف!

في تلك اللحظة جاء صوت نسائي جميل من الداخل:

ـ من في الباب؟

صاح شيرزاد:

ـ الظامئون على طول الخط!

لم تتمالك الفتاة نفسها، هرعت ووقفت. قالت أمّها:

ـ هل تعرفينهم؟

تشجعت الفتاة بلهفة:

ـ هل نسيتِ هذين الوجهين يا أمّي؟!

كانت تنظر إليهما، تدخلت البنت ثانية. قالت:

ـ يا أمّي.. ألم تناوليهما الماء على أزمر!

ـ آه.. لقد نسيتهما حقاً!

دخلوا البيت، كان نوزاد مسكوناً برعشة يجهلها، كانت أمّه تسترد شيئاً فشيئاً إرادتها، دخلوا غرفة الضيوف، ظلّ شيرزاد واقفاً، كان ينظر إلى الجدران، لوحات مرصوصة بتناسق وذوق رفيع، بينما نوزاد وأمّه جلسا على أريكة، في تلك الليلة تم كشف أوراق الزيارة، لم تبدِ أم الفتاة ردود أفعال، كانت منسجمة في حوار حزين مع المرأة التي جاءت تطلب يد بنتها، عن سنوات المحنة، والعمر الذي أنقضى بحياكة الليف والأحذية النسيجية لمجابهة متطلبات الحياة القاسية.

***

تم الاتفاق الروتيني على متطلبات الحياة الزوجية القادمة، لم يمهلوا القضية وقتاً، تفاهموا على كل الأمور والطلبات في جلسة واحدة، لم تتدخل أم البنت سوى انسجامها مع أم نوزاد وإعادة أوراق عمريهما، وقصتي زواجيهما من رجلين أخذتهما الحكومة ولم تعرفا شيئاً عنهما، تركت بنتها من غير تردد أن تطرح حياتها القادمة على بساط التواضع، لم تضع عراقيل ولم تكن مثل الفتيات، حين يمارس الآباء والأمهات طقساً بالياً، إعطاء فرصة أو مهلة لمناقشة الموضوع، في تلك الليلة أنهوا قراءة سورة الفاتحة، البنت وحيدة امرأة، والولد وحيد امرأة، الوالدان مفقودان، أنهوا المتعلقات في ظرف أسبوعين، قطعوا المهر وهيئوا جهاز العرس، اختارت دلسوز مكان الفرح وساعته، رغبة قديمة كانت تسكنها، لم تبح بها، لم ترغب اطلاع أحد على رغبتها، كانت تحرسها بحرص وتناقش نفسها حول سبل تحقيقها، كلما جن الليل، وقبل أن يباغتها طائر النوم، غلفت رغبتها بعباءة الصبر وأرقدتها في سويداء قلبها ليومها الموعود.

***

قالت:

ـ هي رغبتي الوحيدة!

قال نوزاد:

ـ لم لا نحجز قاعة كبيرة تليق بمكانتك الاجتماعية؟!

ـ في الطبيعة سعادتي!

ـ للرسم عالم ولحياتك الخاصة عالم آخر!

ـ رغبتي الوحيدة أن أطأ بأقدام الفرح مكاناً ما زال يحفر ذاكرتي بالحزن!

ـ بإمكاننا أن نحقق ذلك فيما بعد!

ـ هو مكان خاص، مسكن أحلامي، عهد قطعته مع نفسي!

ـ حسناً أنتِ صاحبة القرار الأخير!

ـ هناك في معسكر جناروك أريد أن أشهد العالم على عرسي!

ـ لكنه مكان مقيت!

ـ في تلك المنطقة...!

سكتت عن الكلام، وجد نوزاد خطيبته مسكونة بألم جديد، كانت دائمة الفرح، لم يلمح في سحنتها غير ورود المسرات نابتة رغم كل الظروف.

في المرّات التي رآها كانت متألقة كحمامة تتنقل بخفة، وجد نفسه أمام سؤال يريد جواباً حاسماً، بحث عن سر التبدل الجوهري لفنّانة ما عرفت غير السعادة منهجاً يليق بموهبتها، مسحت البنت دموعها، حاولت أن تصطنع ابتسامة كي تحسسه بسعادتها المعهودة، وجد نوزاد فرصة ماثلة لقول ما وجد من كلمات على لسانه:

ـ لك ما تريدين!

ـ توالدت الرغبة ذات يوم، كنت صغيرة، يوم حدّثتني جارتنا عن أبي، قالت أنه كان فوق ذلك المكان الشاهق يرسل مراسيل السعادة إلى العالم!

من جديد سكتت، وجدت نفسها مختنقة، تحاول أن تخنق العبرة وتسترد لسانها، كانت دموعها تنهمل من موقيها بوضوح، رفع نوزاد كفيه

ولامس وجنتيها، بدأ بمسح دموعها، وجد في عينيها مستقبلاً يشرق بضياء متنامٍ، شاركته مسح دموعها، تصادمت كفيهما، وجدت نفسها من جديد قادرة على الكلام:

ـ كان أبي من هناك يعزف بـ شمشاله، قالت المرأة لي" طائرات الحكومة جاءت وأخذته، ومن يومها ماتت قلوب الفتيات، لم يعد هناك ربيع يسقي قلوبهن بأغاريد الحرية والحب!

ـ حبيبتي دلسوز" أنا موافق على ما تختارين!

في أحد مطاعم سرجنار

ـ بعد غد سأرقص حتى الموت! صاح شيرزاد.

ـ شيرزاد مشهور بالرقص يا دلسوز! أظنّه تربى مع الغجر! قال نوزاد.

أجابت دلسوز ضاحكة:

ـ ليرقص حتى أرسمه في لوحة نادرة!

ـ أرجوك أرسميه بملابس غجر! صاح نوزاد.

ـ سأجعل له أجنحة ويرقص في الهواء! صاحت دلسوز.

تدخل شيرزاد:

ـ سأرقص مقابل طلب بسيط!

ـ وما هو طلبك؟ أجابته دلسوز.

ـ أريد صورة لخطيبك يرقص في فضاء السليمانية، هل توافقين؟ قال شيرزاد.

كرع شيرزاد نصف عبوة ماء وقام، مشى لبضع خطوات قبل أن يقف ويستدير ليواجههم.

صاح نوزاد:

ـ ماذا ستفعل يا مجنون؟

لم يفه شيرزاد بشيء، بدا كمن يروم تذكر شيئاً، كان ناحتاً عينيه في عيون تنظر إليه، فجأة رفع يده اليمنى أتبعها اليسرى، وازن بين يديه مثل صقر يريد التوقف في الفضاء بعدما رصد طريدة، صاح وقفز، تعالت رشقة ضحكات من كل مكان، حين لمحه صاحب المطعم رفع صوت الأغنية التي كانت تشيع كلمات الفرح في ربوع مطعمه، تعالت ضربات الأكف مع رقص شيرزاد، صدحت زغرودة طويلة من فم أم نوزاد ردّتها فم أم دلسوز بزغرودة نادرة، وصفتها فيما بعد" " كان عهداً قديماً قطعته مع نفسي أن أزغرد يوم عرس دلسوز". رقص شيرزاد حتى تهالك، عاد وجلس وسط تصفيق حار مكافئة له من قبل الحضور، قال بعد أن كرع ما تبقى في العبوة من ماء:

ـ كان يجب الاحتفال هنا!

أجابته كلبهار:

ـ حسناً ليكن حفلتنا هنا!

ـ سأفكر في الموضوع! تمتم شيرزاد.

أجابه نوزاد:

ـ ستنهال حجارة الدنيا عليكما!

ضحكت كلبهار. صاحت:

ـ مراسيم عرسنا في نادي المهندسين!

صححت دلسوز مسار الحوار:

ـ ليس المكان إلاّ رتوش مكملة للفرح، أنا أجد الطبيعة هي المكان الذي أجد فيها نفسي!

قالت كلبهار:

ـ حفلات اليوم تختلف عن حفلات الأمس، الناس بدأت تختار المعسكرات المهجورة لأعراسها!

ـ تعبير عصري لدفن الأحزان السابقة بضربات الأقدام! أجابت دلسوز.

ـ دلسوز ستعلن لكم أين نقيم حفلتنا! قال نوزاد.

ـ سأختار مكاناً يلاءم حفلة عرسكم! أجاب شيرزاد ضاحكاً).

ـ أين يا زوجي؟ أجابته كلبهار.

ـ في المكان الذي أراد أن يطير منه جناب الباش مهندس!

ضربت أم نوزاد على كتفه. قالت:

ـ رأيي من رأيك يا ولد!

في تلك اللحظة بدأت أيدي الندل توزع العشاء على الطاولة. قال شيرزاد:

ـ مكان الميلاد الجديد لعريسنا الحزين!

قالت دلسوز:

ـ عن أي ميلاد تحكي! عن يوم عطشكما!

ـ أي عطش يا ست، شرعت أمتنا الكردية أقلامها، تحفزت لتدوين أسطورة جديدة لولا تدخلي في اللحظة المناسبة، أنا السبب من حرمان تاريخنا من حكاية أبن فرمان السليماني!

قالت دلسوز:

ـ دع الحكاية لما بعد العشاء أرجوك، يبدو أنها حكاية تستحق التخليد في لوحة، أشعر بجوع كبير يا جماعة، هيّا قبل أن يبرد عشاءنا!

كانت الأيدي تتنقل وتتصادم، تعشوا واغتسلوا وعادوا لجلسة حوارات جديدة. أفتتح شيرزاد الجلسة:

ـ قل لي" هل حقاً ستصبح شرطياً؟!

ـ أصبح شرطياً لفترة وجيزة فقط! أجاب نوزاد.

ـ يا لعالمنا الديمقراطي، سيعمل الباش مهندس شرطياً!

أجابت دلسوز:

ـ ليس شرطياً يا شيرزاد، بل مرافق لمسئول كبير!

ـ يا للهول! يحرس حامل شهادة هندسة حامل شهادة سلاح!

ـ في أقل تقدير، لحين صدور أمر تعينه!

ـ لماذا لا تحرسني يا باش مهندس، أنا سأعطيك راتباً محترماً!

ـ ممن أحرسك! من الفتيات!

صاحت كلبهار:

ـ يا لكما من ملعونين! لديكما أسرار من وراءنا!

تدخلت أم دلسوز بعدما قطعت حديثها مع أم نوزاد:

ـ شباب اليوم ألسنتهم لا تعبر عمّا في قلوبهم!

قالت أم نوزاد:

ـ في زماننا كان الفتى يموت من أجل البنت الذي يرغبها!

ـ لكل زمن نوع من البشر، ليس من الحكمة أن يـأتي جيـل عنيـد في زمـن متراخي! قالت دلسوز.

ـ علينا أن نمشي مع الموضة يا جماعة! قال شيرزاد.

ـ أنت تأتيك موضتك عبر الـدولارات الهاطلـة مثـل المطـر عليـك! باغتـه نوزاد.

ـ وأنت غداً ستمطر عليك الذهب! ردّه شيرزاد.

ـ لست من أصحاب الحظ.! هتف نوزاد.

ـ سترفع أسعار اللوحات بناء على متطلبات حياتك الزوجيـة المحترمـة! قـال شيرزاد.

ظلّ الحوار يدور، تارة ينشطر وتـارة يلتـئم، الأم تحـاور الأم، الولـد يحاور الولد، الخطيبة تحاور الخطيبة، عند منتصف الليـل، قـام الجميـع. قـال شيرزاد:

ـ لدي فكرة!

ـ وما هي فكرتك الجديدة! أجابه نوزاد.

ـ أن نذهب معاً في جولة تفقدية إلى مكان ميلاد نوزاد!

أجابه نوزاد:

ـ سأوافق بشرط التوقف أمام بله مشروب!

صاح شيرزاد:

ـ اعتذر" أسحب كلامي!

قالت أم نوزاد:

ـ تأخرنا!

ـ سأوصلكم جميعاً. قال شيرزاد.

ـ مركبتك لا تسعنا! قالت أم نوزاد.

ـ لا.. سنأخذ تاكسي كما جئنا، أذهب أنت وكلبهارك!

أوقف نوزاد مركبة، جلس في المقدمة، بينما جلست دلسوز والمرأتان في المقعد الخلفي قبل أن تنطلق بهم شارخة صمت الليل بوشيش متناعس.

دلسوز تروي حلمها

قالت الصحفية لها:

ـ لم هربت نحو الجبال؟

صمتت دلسوز، وجدت الكلمات متناثرة، ظلّت عينا الصحفية تنغرز فيها. أجابتها:

ـ وهل يتعلق ذلك بموضوعنا؟

ـ أعتقد أنه خير مفتتح للحوار!

ـ حسناً.. كانت رغبة طفولية، باغتتني في تلك اللحظة!

ـ هل كانت لديك ذكريات عن ذلك المكان؟

ـ لدي ذكريات؟ لا.. لا.. ليست هناك كما تظنين!

ـ هل كنتما تعرفان بعضكما؟

ـ لا..!

ـ لم ركضت نحو الجبل؟ هل كانت محاولة انتحار؟

ـ لم انتحار؟

ـ ربما كنت ضحية في زواجك!

ـ أعتقد أنك تخرجين بعيداً عن الموضوع!

ـ لا يمتلكن فتياتكم رغباتهن، كونهن ضحايا أوامر الأب!

ـ ربما أنا كسرت هذه القاعدة!

ـ هل يعود ذلك لغيّاب الأب مثلاً؟

ـ الأب الكردي لا يغيب، هو حاضر دائماً بيننا!

ـ حسناً.. لابد من وجود دافع كبير وراء ركضك نحو الجبال وأنت في يوم عرسك!

ـ قلت جوابي لك، فقط كانت رغبة طفولية، حضرت في تلك اللحظة!

ـ لا تولد الرغبة من فراغ، لابد من بذرة تم زراعتها في مرحلة ما؟!

ـ لا شيء من هذا القبيل!

ـ ربما هذا الفاصل الحياتي هو الذي يثير المتلقي، فقط لو أبحت بوضوح سر ركضك نحو الجبال!

ـ لا.. لا.. ليس هناك سابق معرفة، لا وجود لدوافع كما تظنين، كل شيء حدث مثل الحلم!

ـ لنعد لموضوعنا، أنت ركضت نحو الجبال، الجبال يتواجد بقوّة في لوحاتك، ما سر تعلقك بالجبال؟ هل هو ارتباط فطري بين الإنسان الكردي وأصله الحضاري؟

ـ تمتلك الجبال مكانة خاصة عندنا، الجبال عالية، نحن نعشق السمو في حياتنا، فوق الجبال نشعر أننا نمتلك حريتنا!

ـ ما سرد اللون الضبابي المهيمن على لوحاتك؟

ـ أردت الإفصاح باللون، والبوح بما وراء هذا الضباب، العالم الجديد الذي يتوالد!

ـ لم الضباب بالذات؟

ـ يتعلق بحياتنا السابقة!

ـ هل أزيح الضباب بعدما تحررتم؟

ـ أعتقد أنكِ رأيتِ كل شيء في ربوع كردستان يرفل بالحرية!

ـ لكي لا نخرج خارج موضوعنا الرئيس، لوحاتك تحجز بسرعة، ما سر تعلق الناس بالرسم؟

ـ الحرية فتحت أنفاق الحياة للناس، كان هم الوجود يشغل الفكر الكردي، الآن وجدت الناس وسائل تعيد لها ما أضاعت من مسرات، هذه الوسائل متعددة، الكل يسافر، والكل يبدل لون حياته من خلال تبديل طرق العيش في المنازل، لكل إنسان وجهة نظر، له الحق في توجيه رغباته، ناسنا محبة للجمال، ربما كوننا متلاحمين منذ الأزل بالطبيعة، طبيعتنا الساحرة طبعاً!

ـ يقال عنك، أنت متحررة خارج الحدود!

ـ نعم منذ طفولتي أشعر بهذا الاتهام الجميل!

ـ البعض وصفك بالمجنونة!

ـ أشعر بالزهو حين أسمع كل كلمة تخصني!

ـ هل تدفعك تلك التوصيفات نحو بئر الموهبة؟ أعني أنك تجابهينهم بالرسم مثلاً!

ـ من حق الناس البحث عن الكلام اللائق بطبيعة عيشها، ومزاجية الرؤية نحو الأشياء!

ـ لنعد لقصة زواجك، أنت تزوجتِ خارج الوسط كما يقولون!

ـ زواجي زواج طبيعي بكل المقاييس الاجتماعية!

ـ حسناً.. قلت أن ركضك نحو الجبل كان تعبيراً عن رغبة طفولية، لم تصفِ لي تلك الرغبة!

ـ مجرد هاجس ولد في لحظة قديمة!

ـ لابد من وجود داع طبعاً!

ـ عدنا لأسئلتنا السابقة!

ـ ربما السؤال الأكثر أهمية بالنسبة لحوارنا!

ـ لا أجد هذه اللحظة كلمة مناسبة، أقول لك" مجرد كانت رغبة!

ـ حسناً.. صفي لي الرغبة!

ـ الرغبة إحساس!

ـ قلت رغبة طفولية! حسناً.. لابد من شيء ما أنهض الرغبة في لحظة كان يجب أن تكوني فيها في قمة سعادتك!

ـ لم أفهم سؤالكِ!

ـ موجز السؤال هو، ما الذي أنهض رغبتك في تلك اللحظة!

ـ جملة أشياء!

ـ هل من الممكن إيضاحها؟!

ـ موجز الجواب" المكان!

ـ على ذكر المكان، لم مكان معسكر مهجور اخترت لحفلة زواجك؟

ـ قلت رغبة!

ـ كانت رغبة قديمة!

ـ رغبة قديمة جداً!

ـ على ما يبدو حياتك جملة رغبات، هل تعيشين تحت سطوتها مثلاً؟

ـ أعتقد أن الرغبات الطفولية هي التي تسيرنا!

ـ رغبات طفولية أم أمنيات؟!

ـ لا أجد فرقاً بين المفردتين!

ـ حسناً ما حكاية الشمشال الذي وجدتيه؟!

ـ قيل لي من ممتلكات أبي!

ـ قيل أن أباكِ أخذته الحكومة، ما الذي أوصل الشمشال إلى تلك القمّة؟

ـ كان فوق الجبل ساعة اعتقاله، ربما رماه لحظة اعتقاله، رماه للتاريخ طبعاً!

ـ هل كنت حاضرة مع من شاهد الواقعة؟ أعني لحظة اعتقال والدك؟!

ـ كلاّ.. كنت طفلة!

ـ في حوارات سابقة ذكرت أن أباك كان عازفاً ماهراً بالـ شمشال؟

ـ كان يرعى الماعز فوق الجبل، يعزف خالباً ألباب النساء والفتيات!

ـ السؤال الذي ظلّ بلا إجابة سبب ركضك!

ـ لا أعرف، أشياء بدأت تحاصرني، فجأة سمعت صوت شمشال ينحدر من القمم العالية، رأيت خيال فتى يقف هناك فوق القمّة، لقد كان أبي جاء ليشهد عرسي!

تتوقف الفنّانة عن الكلام، تبدأ بالبكاء لتسع دقائق، تمسح دموعها، تواصل الكلام.

ـ أستميحك عذراً، لم أحتمل المشهد الذي رأيته!

ـ ماذا رأيتِ؟

ـ فتى يقف وصوت شمشال يسترسل في الفضاء!

ـ ربما أشياء قديمة تراءت في تلك اللحظة!

ـ كلاً.. كنت متيقنة من المشهد!

ـ ربما تخيل كونك تحملين ذاكرة رسميّة!

ـ أنا موثق أن روحه جاءت لتشهد على عرس بنته الوحيدة!

ـ حسناً.. أرجو أن لا أكون سبباً لجلب أحزان الماضي لك وأنت تعيشين أيامك العسلية!

ـ كلا.. مجرد مشهد حضرني، كنت مع خطيبي والناس من حولنا ترقص وتغني، وجدت رصاصات صدئة على الأرض، وجدت فوق القمّة فتى يقف ويعزف، فقدت رشدي ومضيت أركض نحوه، للحق أقول فقدت صوابي، لم أعد أمتلك إرادتي، هربت وكان الناس تتبعني، لم يستوقفنِ أحد، ربما توقعوا أن موقفي ذلك جزء من متطلبات الفرح، وصلنا القمّة، لم أجد الفتى، وجدت الشمشال، ووجدنا أكوام عظام حيوانات، قيل أنها تعود للقطيع الذي كان أبي يرعاه!

ـ ألم تفحصوا العظام ربما هي تعود للبشر؟!

ـ ربما كما تقولين، وجدوا أيضاً نطاقاً عسكرياً و بسطال متحجر!

ـ لابد من وجود بشر أيضاً طالما عثرتم على ممتلكات شخصية!

ـ ربما أنت على حق!

ـ حسناً.. وماذا بعد؟

ـ قررنا أن نشيد قبراً هناك لأبي في المكان الذي وجدت فيه الشمشال!

ـ حسناً.. دعيني أهنأك بزواجك أولاً، أملي أن نلتقي في حوارات قادمة!

ـ تأجل اللقاء طويلاً، الظروف حالت دون ذلك، أطلب المعذرة!

ـ حين علمت بانشغالك بأمورك الزوجية قررت تأجيله!

ـ أجدد سروري بك، تحياتي لك وللعاملين في صحيفتكم ولقرائها!

ـ تحياتي لك وللعريس ولأمتكم!